كيدهم وكيدهن
(مجموعة قصصية)

تأليف / فخري فايد

قصة قصيرة

فخـرى فــايـد

كيدهم وكيدهن

- ١ -

جلس الشيخ " مستكفى حصافى " فى الدوار وحيدا بعد أن غادره آخر زواره، كان الليل شديد الظلمة، ومن شرفة الدوار كانت تطل عليه نجمات صغيرات من السماء فى وهن وحياء، وقد تعلقت عيناه بنجمة وحيدة متألقة راحت تشع بنورها عليه، وتنهد الشيخ حامد وهو يجدها كابنته " مرمرية " وحيدة بلا اخوة ولا أخوات، لقد أعطت الدنيا للشيخ " مستكفى " أكثر مما كان يرجو، فلقد شب فى أسرة متوسطة الحال كان ترتيبه فى قائمتها الثالث عشر والأخير، وكانت أمه الحاجة " خدوجة " رحمة الله عليها، لا تمل من ترديد قصة مولده :

– لقد جئت غلطة يا مستكفى .. وبعد أن اكتفينا خلفة، ولذلك أصررت على أن أسميك مستكفى، المرحوم أبوك كان دائم القلق من أجلك، كان يقول لى: " مستكفى " سيكون رزقه محدود، فلقد جاء والدار فى غير حاجة للمزيد من العيال، وكان كلما صحى أو نام يوصينى بك خيرا، كان شديد الخوف عليك، وكان يقول دائما : المستكفى هو الوحيد من بين أولادى الثلاثة عشر الذى لن أحضر زواجه، فلقد خلفناك وأبوك فى الستين من عمره، ولقد صدق ما قاله، ومات وأنت ابن عشر سنين، ولكن أبوك لم يصدق فى حكاية قلة الرزق .. فأنت يا مستكفى بسم الله ما شاء الله أكثر اخوتك رزقا، وأكثرهم أرضا ومالا وجاها، رغم أننى حاولت أن أجعلك تتم تعليمك لتصبح أفندى مثل باقى اخوتك ولكنك لم تفلح، ومع هذا فأنت واسع الرزق يا مستكفى يا ابنى .

ويقاطعها مستكفى قائلا فى صوت كالأنين :

– إلا فى الخلفة يا أمى .

وتضربه الحاجة على كتفه مؤنبه :

– سبحان مقسم الأرزاق يزيد وينقص، واحمد الله على " مرمرية " فهى أجمل بنات البلدة كلها. . الله قادر أن يرزقك من ذريتها الأحفاد بنين وبنات .

ولأن " مرمرية " جميلة الجميلات، ورغم كونها لم تتخط السادسة عشرة من عمرها، تقدم لطلب يدها عشرات من شباب أعرق الأسر بالناحية : مهندسين ومدرسين وصحفيين وملاك أرض، حتى الولد " ملحوس " درويش القرية تقدم إليه يطلب يد مرمرية، ولكن الشيخ " مستكفى " فضل أن يزوجها لـ " مراد البشارى " فهو شاب ثرى ومثقف ومن أسرة ذات نفوذ، كما وأنه يسكن فى عاصمة الإقليم، خاصة وأن " مرمرية " كانت لا تحب حياة الريف، وكانت شديدة الضيق بها .

وفات الشيخ مستكفى أن هذه الزيجة قد تمت على أسس حسابية، فلقد درست عائلة " البشارى " حالته المالية، وما سيئول إلى " مرمرية " من أرض وأموال بعد وفاته، أما فى حياته فلقد رسمت الخطط لدفع " مرمرية " عند إنجابها من " مراد " أن تطلب من أبيها لكل طفل وطفلة بضع أفدنه من أرضه، وهكذا وشيئا فشيئا تأول كل أملاكه لعائلة " البشارى ".

.. لقد جعل الشيخ " مستكفى " القرية تعيش فى فرح متصل طيلة ثلاثة ليال، لم ينقطع فيها تقديم الطعام لكل عابر سبيل، واللحم والمال لكل محتاج ويتيم، واستمر السهر كل ليلة فى غناء وطبل وزمر ورقص حتى يؤذن لصلاة الفجر، ثم زفت " مرمرية " إلى خطيبها، وحملتها السيارات إلى المدينة فى موكب يزيد عدد سياراته على المائة سيارة، حيث يسكن " مراد البشارى " فى فيلا فخمة ضخمة على شاطئ البحر الكبير بمدينة " المنصورة ".

.. وما هى إلا شهور قلائل حتى أقبل " مراد " حاملا البشارة لحماه الشيخ " مستكفى " ويقول له وهو ينزل من سيارته الفخمة :

– أبشر يا عم .. إن مرمرية حامل .

ويكاد الشيخ " مستكفى " يطير فرحا، ويدعو الله أن يكون الخير فى أحفاده كما بشرته أمه، فتأتى له " مرمرية " بقبيلة من البنات والبنين، ويترك الشيخ مجلسه، ويتخلى عن وقاره ويحتضن " مراد " مهنئا، وصوته يتهدج :

– ألف مبروك يا مراد .. ربنا يملأ عليكما حياتكما بالخلف الصالح .

– ٢ –

.. وتمر الشهور سراعا، ويبعث مراد بسائقه ليحضر حماه وحماته إلى المدينة، فمرمرية قد جاءتها آلام الوضع، ويطلب منهم السائق أن يرتديا ملابسهما للسفر على وجه السرعة، وتنتاب الشيخ مستكفى فرحة شديدة فكل ما ورد بخاطره أن " مرمرية " سوف ترزق بتوأم من الذكور أو ببنت وولد، ويردد بينه وبين نفسه : حتى لو بنتين .. خير وبركة، فبعدهم بالقطع سيتوافد البنون .

أما زوجته " صالحة " فلقد كانت على غير حاله، كانت واجمة ساهمة، يتقطع قلبها من القلق والخوف على وحيدته، فهى تعرف آلام الولادة الأولى، ولا تنسى أنها كادت تموت وهى تلد ابنتها " مرمرية "، أما بعد ذلك فيقال ان الولادة تكون يسيرة وميسرة .

لم يتجه السائق بهما إلى فيلا حامد كما توقع الشيخ " مستكفى "، ولكنه اتجه إلى داخل المدينة، وسأله الشيخ مستفسرا :

– إلى أين يا أسطى شحاتة ؟.

قال السائق :

– الست هانم وضعها متعسر .. ولذلك نقلها مراد بك إلى المستشفى .

ووقفت السيارة أمام مستشفى خاص شديد الأناقة والفخامة، وقال الشيخ مستكفى لنفسه: وهل أقل من أن تلد ابنته فى المستشفى .. فمال حامد وفير والحمد لله .

أما الحاجة " صالحة " فلقد زادت اكتئابا فوق اكتئابها، وملأتها هواجس تكاد تصل إلى اليقين بأن مرمرية فى خطر عظيم، وأنها ستضيع منها بين لحظة وأخرى، فلم تملك دمعها وتوجعت قائلة فى حزن :

– ابنتى .. وحيدتى .. ضناي .

فقال لها الشيخ " مستكفى " لائما :

– يا صالحة بشرى ولا تنفرى .. أيقنى خيرا .

.. واندفعا يقفزان السليمات خلف السائق، وسقطت الحاجة " صالحة " على الأرض فور رؤية " حامد " ودموع التأثر تملأ عينيه، فلم تغادر المستشفى إلا وقد حملها زوجها الشيخ " مستكفى " لتدفن بجبانة القرية، رغم محاولات الأطباء لإسعافها، ورغم تقريب الوليد منها، ورغم نقلها إلى الحجرة التى كانت مرمرية تنام فيها تحت تأثير المخدر، بعدما وضعت وليدها بعملية قيصرية .

- ٣ -

وبعد أن هدأت أحزان الشيخ " مستكفى "، وجد البيت قد كبر عليه فهو ووحيد بلا أنيس، وشعر بأنه يكاد يموت من الملل والهم، وفجأة يتذكر صديق صباه " سيد جودة " زميله بالمدرسة فيقرر أن يسافر إليه حيث يسكن بالقاهرة، فهو بالقطع مازال يسكن فى بيت أسرته بحى " القللى " فلعل " سيد " بما عهده فيه من مرح، يخرجه من حال الحزن الذى يعيشه منذ وفاة زوجته، ويكفى أنه سيخرج من منزل الذكريات الذى لا يحمل بين جدرانه غير صورة الغالية التى رحلت عنه فجأة وخلفته وحيدا بلا ونيس ولا جليس .

ولم يتعب الشيخ " مستكفى " فى الوصول إلى مسكن " سيد جودة "، فلقد صدق توقعه، ووجده ما زال يسكن فى بيت أبيه رغم الشيخوخة التى أصابت المبنى .

استقبله " سيد " بالترحاب بعد أن لمح ما يحمله صديقه من أكياس ولفافات وطيور، وأقبلت عليه زوجته مرحبة صاخبة رغم أنه لم يرها من قبل، وأدرك أنها سيدة ودودة .

وحين خلا الصديقان إلى بعضهما، راحا يتذاكران أيام الصبا، وقال " سيد " للشيخ " مستكفى " بعد أن علم بوفاة زوجته :

- يا صديقى أنت يلزمك الخروج للدنيا .

قال " مستكفى " :

- لقد جئت إليك بعد أن اختنقت من الوحدة .

- إذا هيا بنا إلى الانطلاق والفرفشة .

- ٤ -

استعاد الصديقان أيام الشباب وجلسات مقهى لونا بارك، وسهرات شارع عماد الدين، ورغم أن الشيخ " مستكفى " قد وجد المقهى لم يعد بجاذبيته القديمة، وأن شارع عماد الدين أصبح مجموعة متراصة من المحلات، إلا أن " سيد " قد ذهب به إلى أماكن أكسر سحرا ومرحا بشارع الهرم، ووسط جو المرح وذكريات الصبا والغرام، قال له "سيد جودة " :

- قل لى يا مستكفى لماذا لا تتزوج لتأتى بالبنين ليحملوا اسمك ؟.

قال " مستكفى "مبتسما :

- لقد رزقنى الله بابنتى مرمرية، والبركة فيها .. فهى ستأتينى بما لم أستطع الإتيان به لا أنا ولا المرحومة أمها .

قال " سيد " وهو يضغط على الكلمات حتى يكاد يسحقها :

- أقول لك ذرية تحمل اسمك أنت يا مستكفى.. ولا أقصد أن تحمل اسم زوج مرمرية ابنتك.

قال مستكفى وكأنه يقطع الطريق :
ـ ومن هى المجنونة التى تقبل بأن تتزوج رجلا يقترب من الستين من عمره ؟.
قال سيد :
ـ أولا أنت لا يظهر عليك سن، فالخير الوفير والصحة الوافرة يجعلانك فى سن الأربعين.. ثم لا تنس أن الرجل منا يظل ينجب إلى أن تطلع روحه .
قال " مستكفى " وقد حازت الفكرة قبوله :
ـ ولكنى إن تزوجت فسوف أقيم بالقاهرة حتى لا أجرح مشاعر مرمرية أو أترك أهل القرية يمضغون قصصهم حولى، كم إنى إن أتزوج بنت صغيرة.. بكر تعيد إلى شبابى .. وتدخل البهجة على قلبى .
قال " سيد " :
ـ طلبك مقبول .. وعروسك عندى .. عروس هى إلى جانب الصبا ملكة جمال .. من الآخر هى فردة تحل من حبل المشنقة .
قال " مستكفى " فى همة :
ـ ومتى أراها ؟.
قال " سيد " :
ـ هى جارتنا وغدا سأجعل زوجتى تحدد لك موعدا.
قال " مستكفى " ضاحكا فى انتعاش :
ـ تحدد لى موعدا .. وتتركنى وحدى يا سيد ؟.
قال " سيد " :
ـ عيب يا رجل يا عجوز، وهل تريد يسندك، وأنت من كنت تسندنى مع كل من عرفت من فتيات؟.
قال " مستكفى " :
ـ كان يا ما كان .. لقد أنستنى معيشة الريف كل تلك الجرأة فى معاملة البنات .. هل تصدقنى لو قلت لك أننى سأغرق فى عرقى خجلا لو ذهبت وحدى .
قال " سيد " :
ـ وأنت لا تهن على يا مستكفى .. سأحضر معك المقابلة فقط املأ يدك الكريمة برزمة نقود أهندم بها نفسى حتى أليق بالشريفة.
قال " مستكفى " وهو ينهض ويشير للنادل طالبا دفع الحساب :
ـ إذا أذهب إلى فندقى لأنم مبكرا .. ومر على لتأخذ مائتى جنيه .. وسوف تكون لزوجتك الحلاوة لو تمت هذه الزيجة .
قال " سيد " ضاحكا :
ـ ألم أقل لك أنك أستاذ .. وتفهم الأصول ؟.

ـ ٥ ـ

فى مساء اليوم التالى صحب " سيد " وزوجته " مستكفى " إلى بيت لا يبعد كثيرا عن بيتهم، وفتحت لهم الباب فتاة شديدة الجمال، ثم تقدمت ترشدهم إلى حجرة الصالون، وكل قطعة من

جسدها تتأود تحت البلوزة الفضفاضة وقد كشف صدرها المفتوح عن صدر ربراب كالمرمر، بينما أظهر البنطلون شديد الضيق مفاتن ساقيها، فلم يتمالك " مستكفى " نفسه من أن يقول بصوت مسموع :

– سبحان الخلاق العظيم ..

ثم مال على " سيد " قائلا :

– وهل تقبل مثل هذه الفاتنة الزواج منى ؟.

قال " سيد " وهو يغمز بعينه :

– انظر إليها ستجد عينيها تكلانك أكلا .. يا رجل لا تحط من قدر نفسك .. ولا تنس أن بنات هذه الأيام يعرفون أن شباب هذا الجيل خرع لم يأكلوا ما أكلنا أو يشربوا ما شربنا .. وقد لوثتهم الفراخ التى تأكل العفن والجو الممتلئ بالدخان والسموم.. وهدتهم الحياة المتوترة، يا رجل ألم تعرف أن الدهن فى العتاقى.. أم تراك فقدت دهنك .

وقهقه " سيد جودة " فى نشوة، بينما قال" مستكفى" فى حماس :

– فقط هى تقول موافقة على زواجى .. وسوف تسمع منها يا أبو السيد عنى كل ما يسرك .

قال " سيد " بصوت مرتفع :

– ما رأيك يا نواعم فى هذا العريس الذى يفيض حلاوة ومالا ؟.

قالت " نواعم " فى خجل مصطنع :

– وهل لى رأى وأنت موجود يا أستاذ سيد ؟.

قال " سيد " :

- إذا نقرأ الفاتحة .

وبلا وعى رفع " مستكفى " كفيه يقرأ الفاتحة، ثم تساءل :

– ومتى نتمم إجراءات الزواج ؟.

قال " سيد " :

– خير البر عاجله .. غدا نشترى الشبكة .. ثم نحدد موعد الزواج .

قال " مستكفى " وقد أفقدته نظرات نواعم صوابه :

– ولماذا لا نتمم كل شيء غدا .. نشترى الشبكة ونشترى الشقة والموبيليا ونتزوج.

قالت " نواعم " فى ميوعة :

– بالراحة على يا مستكفى بك .. لست حملك.. كيف نشترى شقة ونفرشها فى يوم واحد ؟.

قال " مستكفى " :

– ننزل فى أى فندق خمسة نجوم لفترة شهر العسل ثم ننتقل إلى شقتنا .

قالت " نواعم " فى دلال :

– شقتنا .. لا يا حبيبى بل شقتى أنا وباسمى .

قال " مستكفى " فى وله :

– وهل طلبتى ما يعز على جمالك .. هى شقتك وباسمك .. فقط اسمحى لى أن أبيت معك فيها .

قالت " نواعم " فى صوت متناغم :
ــ تنام معى .. إن كلامك الصريح يصيبنى بالخجل ..هذا كلام لا يقال إلا بعد كتب الكتاب.
قال " مستكفى " وقد سال لعابه :
ــ إذا كان يرضيك نكتب الكتاب حالا فمكتب المأذون على قمة الشارع والشهود موجودين .. وأكتب لك شيكا بالشبكة .. ومهرك الشقة .. ونخرج من هنا إلى فندقنا عريس وعروسه .. وكما قال صديقى سيد أفندى خير البر عاجله .

ـ ٦ ـ

وكأن الشيخ " مستكفى " كان نائما يحلم، أو جالسا فى السينما يشاهد فيلما، فلقد نفذ سيد جودة ما قاله، وعقد له المأذون، واستأجر جناحا فى فندق، وتاه فى عيونها والتصق بنعومة لم ير لها مثيلا فهى حقا " نواعم " اسما وفعلا، ولقد أسمعته ما أكد له أنه مازال ابن العشرين، وتأكد من أنه يستطيع أن ينجب من البنين عشرين .
وفى الصباح حين استيقظ " مستكفى " وجد نواعم عارية فى فراشه وقد استغرقت فى النوم، وهنا بدأت أمور كثيرة تتقافز فى ذهنه لم يكن منتبها إليها : " فأين أهل نواعم ؟.. وكيف وافقت على زواجها منه من غير أخذ رأيهم ؟.. صحيح أنها قد تخطت سن الثلاثين ولكن أليس لها أهل ؟.. ثم إنها ليست عذراء كما طلب من " سيد " أن تكون من يتزوج منها ؟!.. كما وأن اسمها فى وثيقة الزواج " سمارة " وليس نواعم ؟!!."
أستغرق " مستكفى " فى التفكير وهو ينظر إلى الجسد المرمرى الممدد بجانبه، فلم يصدق أن فى هذه الدنيا امرأة بهذا الجمال، راح " مستكفى " يتأمل " نواعم " ويملى نظره منها للحظات ولحظات حتى اتقدت رغبته، ودون أن يدرى التصق بها وهو يهمس لهواجسه :
"ومن يدرينى لعلها يتيمة ؟..ثم إننى لم أسأل سيد هل هى عذراء أم مطلقة ..؟.. وهل يضيف الاسم شيئا أمام هذه الفتنة حتى لو كان اسمها مسخوطة ؟!!.. ثم إنها أصبحت زوجتى أمام الله وأمام الناس ."

ـ ٧ ـ

ضحك " سيد جودة " طويلا وهو يجذب زوجته إلى صدره قائلا :
ــ وهكذا شربها مستكفى أفندى .. وهو من تدلل حين عرضت عليه أمى الزواج من أختى " حسنية " .. وها هو ذا قد تزوج من " سمارة " صائدة الرجال .
تعجبت زوجته ونظرت إليه قائلة :
ــ قل لى ما أصل الحكاية يا أبو السيد ؟.
قال لها وهو يتمدد على السرير :
ــ إنها حكاية طويلة وقديمة .. لقد كان مستكفى زميلى فى المدرسة الابتدائية.. كان يتيما وكانت أمه تتولى الإنفاق عليه من بضع قراريط ميراث ورثها عن أبيه .. قالت أمى هو ولد طيب فلاح وأصيل نأخذه ليسكن عندنا بدلا من سكنى حجرة مفروشة وبعد أن يكبر نتخذه لابنتنا "حسنية " زوجا يصونها ويحافظ عليها وتتمتع فى خيره بدلا من حياتها معنا فى ضنك.

وانتقل " مستكفى " ليعيش فى بيتنا .. ولكنه لم يستطع الاستمرار فى تعليمه فلقد تكرر رسوبه فى الثانوية العامة حتى فصل من المدرسة، ولم تستطع أمه موالاة الإنفاق عليه فعاد إلى قريته على وعد منه لأمى أن يحضر أهله ليخطبوا له أختى " حسنية "، ولكن الأيام والشهور مرت ولم يف بوعده، ثم علمنا بأنه تزوج من امرأة ثرية تكبره سنا حتى يتاجر فى أموالها.. ولقد نجح فى ذلك حتى أصبح من أثرياء منطقته .. وماتت أمى بحسرتها ثم مرضت "حسنية " بعد موتها، وظلت تعالج فى المستشفيات وكلما زرتها لم تكن تسألنى إلا عن مستكفى وعن أخباره، حتى أشفقت عليها وأخبرتها كاذبا بأنه مات فى حادث، وليتنى ما قلت لها ذلك فلقد ثقل عليها المرض حتى لحقت بأمها .. وحين ظهر مستكفى علمت أنه قد آن الأوان لأن أنتقم لأختى ..

قالت الزوجة وهى تنظر إليه فى قلق :

ـ أخاف أن تفعل بى ما تفعله بالناس .

قال سيد متضاحكا :

ـ وهل هذا معقول يا زوجتى الثالثة .. وأنت تعلمين أن الثالثة ثابتة ثبوت الحديد .

قالت فى دلال :

ـ أعلم .

قال سيد مستثيرا رضاها وهو يعلم مدى حبها للمال:

ـ ترى هل تعلمين كم هى عمولتى من وراء هذه الزيجة حتى الآن ؟.

قالت :

ـ كم ؟.

قال سيد :

ـ عشرة آلاف جنيه بالتمام والكمال .. ويتبقى نصيبى من ثمن الشقة .

ـ أخشى أن تنفقها على المخدرات يا سيد .

قال :

ـ مستحيل .

قالت وهى تدفعه بعيدا عنها :

ـ وأنا مستحيل أن أستجيب لرغباتك ما لم تعطنى خمسة آلاف جنيه بالتمام والكمال .. وإلا وحق الله أهد هذه الزيجة على رأسك ورأس بسلامتها راقصة الكباريه.

قام سيد يتطوح من السكر ففتح دلفت دولاب الملابس واستخرج من تحت كومة الهدوم ثلاث رزم من النقود وناولها لزوجته بعد أن قبلها .

ـ ثلاثة آلاف عربون لك .. والألفين بعد أن نعمل عريس وعروس .. اتفقنا ؟.

ـ قالت وهى تنضو ملابسها فى رضا :

ـ اتفقنا .

- ٨ -

حين عاد الشيخ " مستكفى " من القاهرة لم يتجه إلى قريته، بل كان أول مكان يذهب إليه هو فيلا " مراد البشارى " حيث توجد ابنته وحفيده، ولقد قابلته " مرمرية عاتبة عليه طول انقطاعه عن رؤيتها قائلة :

ـ وهل لى فى هذه الدنيا سند غير الله ثم أنت يا أبى ؟!.

قال الشيخ " مستكفى " والخزى يملأ صدره :

ـ معك كل الحق فى عتابك يا ابنتى .. ولكنها التجارة .. فلقد افتتحت لى متجرا فى القاهرة وأنت تعلمين أن المتجر فى بدء عمله لابد أن يوضع له أساس حتى يأتى بالثمر .

قالت " مرمرية " وهى تتعلق برقبته وتقبله :

ـ أستحلفك بالله يا أبت ألا تغيب على فى الزيارة .

قال مستكفى وهو مطأطأ الرأس :

ـ أعدك يا ابنتى .. إنها غلطة ولن تتكرر .

وسافر "مستكفى " من يومه إلى القرية، فأنجز كل أعماله المعطلة، ولكنه لم يستطع الصبر على بعده عن " نواعم " فشد الرحال إلى القاهرة، وأوفى بما عاهد عليه ابنته "مرمرية ".

- ٩ -

.. وتتابع مرور الشهور، وبدأت نظرات " مستكفى " المتلصصة إلى بطن " نواعم " تصاب بالملل، ثم باليأس، فلقد خبت آماله، فى أن تهبه العيال الكثار، ولم يدر ماذا يقول لـ " نواعم " عن عدم حملها، ولم يجد أمامه إلا " سيد جودة " فشكى إليه تأخر حملها، وعقب " سيد " :

ـ أرسل زوجتى لتستفسر منها، فهذه أمور لا يتحدث فيها أو يعرفها غير النساء .

- ١٠ -

صحب " سيد " زوجته وذهب إلى العمارة الضخمة الفخمة بأرقى أحياء القاهرة والتى اشترى " مستكفى " شقة باسم " نواعم "، وما أن فتحت لهم الباب، حتى صاح بها " سيد " :

ـ ماذا جرى لك يا سمارة .. هل تريدين أن تسدى أبواب الخير عنك وعنا ؟.

نظرت إليه نواعم متعجبة وتساءلت :

ـ خير يا سيد ..

قال سيد مزمجرا :

ـ الرجل يتعجل الخلفة .. وأنت يا هانم ولا على بالك !!.

احتدت عليه " سمارة " قائلة :

ـ وهل أنا ماكينة ؟.. ثم ما الذى يجعلك محموقا هكذا.. ألا يصلك المعلوم أول كل شهر؟.. أم تراك ستنال سمسرة عن كل طفل أنجبه ؟!!.

تدخلت زوجة " سيد " فى النقاش قائلة :

ـ يا سمارة أنت تعلمين أن سيد يعتبرك كأخته ويخاف على مصلحتك .. أخرج أنت يا سيد واتركنا وحدنا فهذه أمور لا يعرفها غيرنا .

انسحب " سيد " خارجا، وبدأت زوجته تعقد اتفاقا مع " سمارة "، وبعد ممانعة اتفقا على أن يذهبا معا إلى طبيب أمراض نساء ليفحصها، فلعلها تحتاج إلى علاج بسيط .

وفحصها الطبيب، ثم طلب إجراء مجموعة من التحاليل، وقد جاءت نتيجة التحاليل تؤكد أن " سمارة " تعانى من ورم على المبيض وهو ما يحول بينها وبين تحقق الحمل، وحين بلغ الخبر " سيد " قال :

ـ يا سمارة أنت سليمة مائة بالمائة .. فلنبحث عن العيب فى زوجك .. واتركى لى تدبير هذا الأمر.

ـ ١١ ـ

قال " سيد جودة " لمستكفى :

ـ يا سيدى مبروك .. الدكتور أجرى كل الفحوص وثبت أن زوجتك تمام التمام .. وبقدورها أن تنجب من البنين عشرات .. يبدو أنك صدأت من الركنة .. تعال نذهب سويا إلى طبيب مائة فى المائة يعالج هذه المشكلة .

وحين اختلى " سيد " بـ " سمارة " همس لها :

ـ لقد جاءت فرصتك لتضربى ضربتك وتتربعى على العرش .. وتتخلصى أيضا من ابنته مرمرية التى أوجع آذاننا من كثرة حديثه عنها ومن تعلقه بها .. وهكذا تصبحى الوريثة الوحيدة لكل أملاكه .

سألته " سمارة " :

ـ كيف..والرجل سليم وقد سبق له الإنجاب ؟!!.

قال " سيد " وقد لبث ثوب الشيطان :

ـ هذا عمل الرجال فدعى الأمر لى .

.. ثم رفع صوته قائلا لها :

ـ يا نواعم هانم .. لا تقلقى على مستكفى بك .. هى فحوص قليلة سوف يجريها له طبيب مختص .. وبعدها سوف يكون مائة بالمائة .

ـ ١٢ ـ

دخل "مستكفى" مطأطئ الرأس وكأن العمر قد تقدم به عشرات السنين، وخلفه دخل "سيد "، شهقت " نواعم " وضربت صدرها بقبضتها قائلة فى لهفة :

ـ ماذا أصابك يا حبيبى؟..

ولم يرفع "مستكفى" عينيه عن الأرض، وحين ذاك سألت "سيد" :

ـ ما ذا هناك يا سيد ..

قال "سيد" متصنعا التردد :

ـ زوجك .. الحاج ..

تساءلت " نواعم " :

ـ ما به .. أتلفتم أعصابى .. انطق .

قال " سيد " متلعثما :

ـ التحاليل أثبتت أنه عقيم لا ينجب .
صرخت " نواعم " وهى تلطم خديها :
ـ وابنته .. مصيبة .. هل هذا معقول .. يا خراب بيتك يا نواعم .
قال " مستكفى " وهو يخطو إلى داخل الشقة :
ـ سوف أجمع ملابسى وأعود إلى البلد .. وسوف أرسل إليك ورقة طلاقك .. فما ذنبك حتى أحرمك من حقك فى الإنجاب .
تعلق سيد به قائلا :
ـ يا رجل تعقل .. هل العلاقة بين الرجل والمرأة هى الإنجاب فقط .. إن نواعم تتمنى التراب الذى تسير فوقه .. وكل شىء بالاتفاق .. " ثم هامسا " النساء يعشقن المال .. زد لها فى مصروف البيت .. " ورافعا صوته " ما رأيك يا نواعم هل تحبين أن يطلقك مستكفى بك ؟.
قالت نائحة :
ـ أموت ولا يطلقنى .. هو أغلى شىء فى دنياى .. ولكن المصيبة فى تلك التى يقال عنها ابنته .
وثار "مستكفى" فجأة وصاح قائلا :
ـ محال أن تكون ابنتى وأن ترثنى .. سوف أذهب إلى القرية بنتيجة التحاليل وأعلن للدنيا كلها تبرئى من أبوتى لها.
وانتفض " مستكفى " خارجا ..
وضحك الشيطان وتلميذته طويلا فى نشوة وانتصار، ثم بعد أن هدأ.. قالت :
ـ ها نحن ذا قد انتهينا من آخر سلالة مستكفى .
قال " سيد " :
ـ وأصبحنا نحن الوريثان لكل أمواله .
قالت " نواعم " فى دلال من تعرف مغزى الكلمات:
ـ أصبحنا .. وما دخلك أنت .. هل لك عندى غير عمولتك ؟!.
وجاءها الرد كما توقعت، قال " سيد " :
ـ وهل ستتزوجين من غيرى بعد أن يموت مستكفى ؟.

ـ ١٣ ـ

.. شاعت قصة " مرمرية " بعد أن تبرأ منها الأب، وتغيرت نظرة الناس لها فهى قد أصبحت لقيطة، ثم أصبح الأمر مأساة، فلقد قرر " مراد " أن يتخلص منها، فلا ميراث لها، ولا خير سوف يجىء من وراء إبقائه عليها، فهى لن تجر عليه إلا تحقير المجتمع له ، ووجدت " مرمرية " نفسها بين يوم وليلة طريدة بلا بيت ولا رجل يحميها، بعد أن طلقها " مراد "، وفى بداية الأمر كادت تصاب بانهيار عصبى، ولكنها حين نظرت إلى وليدها تماسكت، فاستأجرت حجرة فى أحد الأحياء الشعبية بالمدينة، وعكفت على تربية ابنها من عملها خادمة فى بيوت المقتدرين بعد أن أنفقت ثمن ما حملته معها من ذهبها، وهى واثقة تمام الثقة فى أن ما حدث مؤامرة دبرتها تلك المرأة التى علمت أنه قد تزوج منها فى القاهرة، وأن الله تعالى لن يضيعها، وهذا ما كانت تراه فى أحلامها كلما فرغت من صلواتها ودعائها لله الرحمن الرحيم الحق العدل.

- ١٤ -

.. وذات يوم يفاجأ " مستكفى " ببطن زوجته " نواعم " وقد تكورت وبرزت إلى الأمام منتفخة، وتفصح عن حمل تحاول بكل الطرق أن تخفيه، ولكنه قال لنفسه فى البداية : لعلها السمنة فعلت بها هذا؟.. ولكن حين وضعت طفلها، لم يستطع إلا أن يطلقها ويطردها رغم بكائها وقولها أنه ابنه وأنها كذبت عليه لأنها هى التى كانت لا تنجب، ولشدة غيظه وكرهه لضعفه أمام جمالها أخذ الطفل وغادر القاهرة إلى القرية، وهو يردد لنفسه :

ـ لن أعود لخطئى فى حق مرمرية، فما هو ذنبها حتى أفعل بها ما فعلت ؟.

- ١٥ -

كتب الدكتور " يسرى شلبى " طبيب مستشفى قرية الشيخ " مستكفى " فى مذكراته الخاصة جدا:

ذات يوم دخل عيادتى رجل مهيب الطلعة وإن كان مهمل الملبس طويل الذقن، فى عينيه حزن عميق، جلس على مقعد بجوار مكتبى، ولقد عجبت من أنه يزورنى بلا سابق معرفة أو موعد، وكان التردد باد على وجهه، وبعد فترة طالت من الصمت قال :

ـ لقد سمعت يا دكتور الكثير من أهل القرية عن طيبة قلبك .. وعن كونك من أسرة عريقة الأصل، وأبناء الأصول لا يعرفون غير الأصول، وما سأرويه لك قد عرف الناس بعضه، ولكنهم لم يعرفوه كله ..

واستطرد الشيخ فقص على تجربته مع زوجته الثانية، وكيف حملت، وكيف أنه لا يستطيع أن يكرر ما فعله مع ابنته مرمرية مرة أخرى، ومع طفل صغير عاجز لا ذنب له، وأضاف :

ـ رغم كل شكى فى انتساب الطفل لى يا دكتور .. فإننى أشعر بميل شديد إليه.. وأشعر بأنه قطعة من لحمى ودمى .

وأخرج من جيب جلبابه مجموعة من الأوراق لوح بها ثم وضعها أمامى قائلا :

ـ ولكن هذه التحاليل الموثقة والمختومة والتى تحمل اسمى تؤكد موت الحيوانات المنوية عندى.. وتؤكد عدم قدرتى على الإنجاب، تدمر عقلى وتكاد تصل بى إلى الجنون.. وتمنعنى من أن أتصالح مع المسكينة التى جنيت عليها، وهى لا ذنب لها فى كل ما جرى أيا كان ما جرى، فلقد شبت وكبرت فى حضنى .. وأحببتها كما لم أحب أحدا فى هذه الدنيا .. كما أننى أبكيها كل مساء .

تناولت الأوراق وفحصتها فوجدت سلامة ما قال، ولكنى قلت له :

ـ يا حاج مستكفى إن الطب قد تقدم .. ولكى يحسم الأمر .. لا نحتاج إلا لأخذ عينة منك وتحليلها .. كما أنه من الممكن تحليل دم الطفل ودمك والمقارنة بينكما .

قال الشيخ فى انزعاج وقد هب واقفا :

ـ لا .. لا دعوا الطفل وشأنه، لتأخذ عينة منى أنا .

وقد كان وأخذت عينة من سائل الحاج "مستكفى" وقمت بتحليلها بنفسى فوجدت أنه رغم كبر سنه إلا أنه يستطيع أن يخصب عشرات الإناث .

وحين جاءنى فى اليوم التالى وساقاه لا تكادان تحملانه، تركته قليلا ثم قلت له :

ـ يا حاج مستكفى .. إن هذا الطفل ابنك، وأنت تستطيع إنجاب عشرات الأطفال لو أردت الزواج من فتاة سليمة .. ولقد أثبتت التحاليل هذا .. وزوجتك كانت صادقة فيما قالته عن تآمرها هى وصاحبك عليك من أجل سلب أموالك وقطيعتك لابنتك .

تهلل وجه الرجل واغرورقت عيناه بالدموع وتساءل فى شك :

ـ ماذا تقول يا دكتور ؟.

قلت له :

ـ كما سمعت منى .. فأنت سليم معافى وأمامك كل معامل الدنيا ستقول لك ما قلته .

قال والشك يمزقه :

ـ وتحليل دكتور القاهرة ؟!.

قلت له :

ـ إما أنه خطأ فى التحليل .. أو تداخل بين العينات عن عمد أو عن غير عمد .. وتستطيع أن تبلغ البوليس بكل هذه الوقائع ليحقق فيها ويأخذ المتسبب عقابه .

تنهد الرجل تنهيدة عظيمة خلت أن روحه ستخرج من جسده مع خروجها، ثم انهار على الأرض، وخلته قد مات، ولكنى سمعت صوته يتهجد :

ـ الحمد لله فاطر السماوات والأرض، يهب لمن يشاء الذكور ويهب لمن يشاء الإناث، ويجعل من يشاء عقيما .

ثم نهض يحتضننى وهو يقول :

ـ كفانى شكا يا بنى فإنه فعل الشيطان .. فإن المرحومة زوجتى كانت من أخلص الناس وأطهرهم .. فليغفر لى ربى مظنتى وسوء ظنى.. ويقدرنى على أن أعوض ابنتى وابنى ما لاقياه بسبب ضيق عقلى وسوء تصرفى معهما.. أما من تآمروا فإن الله قادر على أن ينزل بهم ما يشاء جزاء ما فعلوا فى أبرياء لم يسيئوا لهم .

وحين سلم على مودعا ودموعه تنساب كالمطر، إذا بى أفاجأ به يقبل يدى، فاستغفرت الله وبكيت لبكائه .

ومنذ لك اليوم أصبح الحاج "مستكفى" صديقى الصدوق، وتغير حاله تماما، ولقد فاجأنى ذات يوم وقال لى:

ـ لقد صححت مجموعة أخطائى يا دكتور .. لقد أحضرت ابنتى للبيت وتركت لها التصرف فى كل شيء، ومنه تربية أخيها الذى تحبه محبتها لابنها بل وأكثر قليلا، وليغفر لى الله خطيآتى .

قلت مؤكدا :

ـ يا حاج مستكفى .. إن الله تعالى غفور رحيم.

الآخـــر

بطرف عينيه لمح الجيب المنتفخ .. كان منتفخا بشكل ملفت ، هو يعلم زن هذه الغنيمة له ، وإلا فما جدوى تعبه وشقائه.

تحركت الغنيمة .. تحرك معها يلاحقها، فيرتفع تارة ، وينخفض أخوي في طرق بعضها ممهد يموج بالنور، والبعض الآخر يكتنفه ضباب وكآبة ويغوص برجل الحفر.. بعد حين.. لاحظ أن هناك من يشاركه المطاردة ، فحرك عضلاته، وقام ببعض الحركات البهلوانية ليبين للآخر أنه أقوي وأقدر ، لكن الآخر لم يرع. يبدو أنه مصمم علي مشاركته، لكن الغنيمة له.. وحده، عليه أن يبذل قصارى جهده، أن يسلك كل السبل .

انثني تجاه الآخر:

- مساء الخير .

رد الآخر وقد قطب وجهة:

- مساء الخير.
- لماذا تتابعني؟
- أنا لا أتابعك.
- لحظت هذا .. أختبرتك وتأكدت منه.
- إنك مخطئ.
- لست مخطئا.
- إذن لا داعي للف والدوران، قل إني أتابعها هي لا أنت .
- لكني سبقتك إليها ؟
- امتلكتها بعد؟..
- إني أحاول..
- وأنا أيضا .. أحاول
- أرح نفسك وبعها لي .
- أبيعها؟.. محال .. إنها تطلعي .
- وتطلعي أن أيضا .

- إذن ... متسابق
- نتسابق .. ما الداعي ؟
- أتركها وأعطيك ما تريد..
- أتركها لك ؟.. إذن ما جدواي؟
- أنت مصمم إذن علي السباق ؟
- بل والعراك لو اقتضي الأمر .

عض علي نواجذه وفح::

- ابتعد عني .. لقد أخطأت، كنت أحسبك من طينة غير طينتهمو وتبع كلامه ببصقه فابتعد الآخر ، وبدا السباق ..

كان الآخر من حين لحين يكشر عن أنيابه ويرشقه بنظرات معادية سرعان ما ترتد متكسرة أمام حقد عينيه: هكذا حظه دائما .. يجد الغنيمة فيسرعون إليها وينالوها دونه، لكن هذه الغنيمة ما أروعها .. محال آن تفلت منه ..

قفز فجأة بكل قواه، جعلته قفزته المباغته في مركز أحسن بكثير من الآخر..

أصبحت الغنيمة في حيز الامتلاك .

هرش الآخر مؤخرة رأسه مفكرا وهمس مقتربا من خلف :

- اسمع
- ماذا؟
- مستعد أن أتنازل لك عنها
- لعبة قذرة
- أبدا .. أتحدث بصدق
- إذن أذهب .. دع هذا الدرب واسلك دربا آخر
- الثمن؟
- أي ثمن؟
- لقد قلت إنك مستعد لشرائها
- حدث هذا زمان، أما الآن فلا داعي لمساومتك.

- سآخذ بعد الفتات
- محال .. وهو مطلب غبي.
- غبي؟..
- ولك آذان طويلة ؟
- حمار؟..
- نعم .
- سآدبك .. فأنت تهينيني .
- لا تستطيع .

بل أستطيع أن أقتلك أيضا .. انظر ..

أخرج الآخر من جيبه مدية يبرق نصلها، ارتفد .. قاوم رعشته وفح:

- سأبلغ عنك ..
- أنت ؟.. أتقدر؟..
- طبعا أستطيع..و ستلمن طيلة حياتك..
- أنت تقول هذا ؟.. إن كلماتك الجوفاء لن تصل .. ستضل الطريق لأنها ضلال
- ضلال؟ ..
- لأنني طلبت الفتات فرفضت..
- إذن سأقتلك أنا .. سأفرغ طلقات مسدسي الرابض بجيبي في صدرك وأنالها..
- سنري ..
- إذن هو تحدي
- سمه ما شئت

زفر في غيظ .. اختلس نظرة لما حوله فوجد نفسه وقد تأخر لحظات عن الغنيمة وكان الآخر قد احتل مكانة المتقدم أثناء العراك .. ملأته المرارة ، ليته قبل أن يعطيه بعضا مما أراد، يا للندم، لكنه لن يسلم بسهولة سيقتله لو احتاج الأمر ، بل يجب أن يقتله ، إذن فيفاجئه.

دس يده في جيبه، تحسست أصابعه القماش، من بين الثنايا أخرج مشرطا صغيرا تستعمله المرأة التي يحبها في تقليم أظافرها .

فوجئ.. لعن نفسه.. إنه دائما لا يتسلح بما يحتاج إليه، دائما أسلحته ضعيفة تخذله.. عليه أن يسرع فيختطف مسدسا .. المسدس وحده هو السلاح الذي يستطيع إلغاء أسلحة الآخر .

لمح ابتسامة في محل .. اشتراها .. دخل دكان سلاح.. رمي الابتسامة في وجه صارف الأذونات .. أعطاه إذنا .. أعطاه أذنا مهره بخاتم يلصق

كلمة: خالص لكنه حينما ذهب لاستلام المسدس رفض الصراف تسليمه : إذن فليرهبه .. ليقل له إنه من المسئولين أو إنه شرير.. ليرهبه.

راح يصرخ .. ثم استعرض عضلاته وقام ببعض الحركات البهلوانية الخارقة ، خاف الصراف، ارتعب الرجلان.. صمما علي إعطائه المسدس.. لكن .. لم تكن لديهم مسدسات كان الآخرون قد أخذوها .

***

أمام رجل من الذين يجلسون فوق الأرصفة .. عجوز عنده كتب وأفكار للبيع .. توقف ، لقد أخذ منه من قبل بعضا من الكتب القديمة وصنع منها المشرط، فليأخذ الآن كتابا كبيرا.. مجلدا ضخما يصنع منه سلاحا أقوى من المسدس.. فقط يحتاج الأمر لقليل من إلحاح وكثير من الصبر ، فليجلس بجانب العجوز. حتما سيقلب رأسه بكلمات جوفاء ، لكنه في النهاية سيعطيه المجلد ليصنع به ما يخيف الآخر

قال لنفسه وهو يجلس :

- الصبر

وتربع قاعدا وقبل أن يستقر قال الشيخ : قبض ريح

حينما نهض كان معه سلاح رهيب، أما الغنيمة فحتما أفلتت، ؟إنه لا يراها اختفت.ز واختفي معها الآخر . هكذا حظه دائما : حينما تصبح الغنيمة ملك قبضاه لا يقبض غير الحسرات : قال الشيخ: قبض ريح .

لو كان كامل أو جورج أو مسعده أو إليانا .. إذن لكانت له الغنيمة منذا أمد، لكن هكذا حظه ، خلق هكذا

رفع يده بالسلاح ليقذف به : فما جدواه، لعل أحدا آخر يجده فيفيد منه: وانفرد ذراعه، وردد صوت مكروب:

- يا رب..

شعر براحة لا حدول لها، قال الشيخ : قبضي ريح . في ذات اللحظة لمح الغنيمة تركب سيارة ومعها الآخر ، اندفعت الدماء ساخنة إلي رأسه حتى أصبحت عيناه بلون الدم وانطمس الصوت ، والتصق السلاح جسده في عنف لقد عادت الغنيمة ، عليها ألا يضيعها، الآن هو الأقوى ، لابد أن يتصرف بسرعة.

انطلق وراء السيارة ، ولما حاذاها رفع سلاحه ، ودفع به الآخر فصرخ وسقط متخبطا في دمائه

توقفت السيارة ، أصبحت الغنيمة له .. له وحده

ذات الجيب المنتفخ الذي لمحه في البداية ، جذبها إليه بعيدا عن لزوجة الدم الذي لطخها .

والآن كل ما عليه أن يدفع بيده داخل الجيب وسيصل ، سيمتلك كل شيء.

دف بأصابعه .. فاندفعت مارقة للداخل . راح يجوس بها : لا شيء.. يده تدور .. وتدور في لهفة وجزع ، وجنون ، وسط فراغ ، متاهة لزجة بينما تلمح عيناه سيارة الآخر تندفع تجاهة : صوتها مزعة .. مرتفع .. عويل

تتقدم في إصرار .. إصرار .. إصرار ، ومن أعماقها أطل شبح الشيخ ، تحركت شفتاه ، ولكنه هذه المرة لم ينطق .

ارتمي واقعا علي ظهره والسيارة تقترب منه .. تقترب .. وفي اللحظة التي سحقته فيها الآلات .. وخرجت أنفاسه عن طاعته .. فتح عينيه علي السماء وقد كستها غيوم سوداء : ما لبثت أن انزاحت لتصفو إلا من جبات مطر..

كتاب القصة ـ اتحاد الكتاب ١٩٦٧

الحـــذاء

.. بدأت الأجساد التى واسترخت على الجدران تعتدل عندما أعلن عن انتهاء صلاة الجنازة بما أصدرت جوقة الفقهاء من نداءات ترحميه .
وما أن بدأ النعش يطل بمقدمته من باب الجامع حتى أطلقت النسوة صرخات هستيرية مفجعة تلوى على آثرها طابور المشيعين منتظماً وراء الجثمان المحمول فوق الأكتاف
أما النعش كانت تسير عليه من أقارب الفقيد منكس الرؤس تائهى الألباب ، ومن المؤخرة راح عبد الحى يزاحم ليتقدم والأجساد تستجيب لدفاعاته لتفسح له الطريق ظنه أنه يريد اللحاق بحاملى النعش فيتواجد فى حمل الفقيد ، لكنه تقدم النعش وانثنى بحركة حادة متوسطا ثلة الأقارب مد يده تجاه شيخ مسن ... وتمتم مهزيا
البقية فى حياتك يا عم زهدى
لم يرد الشيخ ، ظل يمشى متعثراً دون أن يعطى عبد الحى أى اهتمام ، وفى كل خطوة من خطواته يتعثر ...... يكاد يتكفىء
بجانبه أفسح عبد الحى لنفسه مكانا وراح ينقل ساقيه محاذراً أن يتقدم الشيخ أو يتأخر عنه وعيناه مشدودتان الى وجه الشيخ الساهم الصفاف بزوقه جعلته فى سواد الطين العفن فلعل الشيخ طتفت ناحيته مهتم بأمره ، حانت الفرصة أخيراً ، والتقت العيون فأعاد عبد الحى عزاه تنهد الشيخ ورمى بذراعه فوق كتف عبد الحى وأشاح بوجهه .. وأندفع باكيا :
- يا ليتنى أنا الميت يا عبد الحى .
- تحمل يا عم زهدى فهذا حال الدنيا .
تطلعت عينا الشيخ إليه للحظه ثم تاهتا وسط طريق من الدمع الغائر :
- يا سلام من كان يصدق أنه هو الذى مات .. من ؟ ..
وتهدج صوت الشيخ وهو يتساءل من وراح جسده يهتز مع اشتداد نفسيته فأربك خطوات عبد الحى وجعل قدماه تتبادلان الدوس أحدهما على الأخرى وتسللت نظرات عبد الحى لتحت ووقع نظره على حذائه اللامع .. وقد أغير جلده وأحس بحنق يجتاح كيانه فلا يدع أحدا إلا وشتمه فلقد شعر بأنه حانق على زوجته التى ألحت عليه فى أن ينتعل حذائه الجديد وعلى نفسه لانه أطاعها فى لحظة ضعف .. وعلى الشيخ الذى نسى نفسه تماما وحب أنه يستند الى حائط الى إنسان سحب الشيخ ذراعه وتقصلت أصابعه فوق كتف عبد الحى الذى أنتفض مفيقا وعيناه تتطلعان الى الشيخ فى انزعاج .. لتجدا عينى الشيخ تمتلأن بالكآبة والرجاء :
- ألم تكونوا تنتظرون موتى أنا يا عبد الحى .. أليس كذلك ؟ ..
ارتبك عبد الحى فاطرق ثانية : فيم يجيب ؟ هل يقول : صحيح أنها الحقيقة أيها الشيخ فلقد كنا جميعاً ننتظر رحيلك أنت حتى هو كان يستعد لهذا الرحيل بعدما اثقل عليه المرض فأخذ يرتب أمر جنازتك .. جنازتك أنت ، لكنها ؟ ..
- دنيا غدارة
زفر أحد المشيعين متوجعا ، حقاً .. أنها كذلك : دنيا غدارة . . غدارة بل أنها دنيا غرور، فها هو الأب يودع الابن، وها أنت منذ لحظة تثور وتمور من أجل حذاء، جزمه، فى حنق ضرب عبد الحى مقدمة حذائه بالأرض ثم عدل عنقه قليلاً وهو يود من أعماقه أو يبصق على الأكذوبة الكبيرة التى يسمونها : حياة ، لكن الشيخ كان ما يزال يشده إليه من كتفه متسائلاً فى إلحاح يائس :
- أو ليست هى الحقيقة يا عبد الحى ؟ .. ألم توقن حينما ارتفعت دقات الطبل حزينة من ناحية دارى أنها أنما تنعانى أنا ... هه .. أجب .. رد يا عبد الحى ؟
.. وعبد الحى قد امتلأت أعماقه بالاكتئاب : وبم يجدى الجواب فيها الأب المكلوم لقد كدت أصاب بالجنون حينما علمت أن من مات هو ولدى ، كان معى بالأمس قبل أن يموت بساعات

وكان يضحك ويتحرك ويملا الدنيا حياة وسروراً ، ولكنها حقيقة ، لحظات يقينا الغادرة التى لا تتساهل أبداً كل ما نبذله من أجل امتدادها .

مل الشيخ الترقب فعينا عبد الحى شاردتان وقد ظرفتما الدموع وساقاه تتحركان وهو ابداً لا يجيب لذا تنهد ورمى بذراعه من جديد فوق كتف عبد الحى وهو معتزم كتمان أوجاعه لكنه لم يستطع فلقد همهم بعد حين فى ذهول :

- لقد ترك لى الألم يا عبد الحى ، كنت أحبه أحبه من كل قلبى ولكن آه .. آه يا ولدى .

.. سارعت أمراه من المؤخرة تنوح :

- يآضنا أمك يا حبيبى

وأنهار الشيخ فزاد بين اعتماده على كتف عبد الحى :

- فقط .. لم مات وتركنى .. لمه ؟ .. ليتنى أنا الذى مات يا عبد الحى .. يا ريت .

ربت عبد الحى فى حنان على يد الشيخ بينما عيناه تجوس خلال شواهد القبور التى باتت قريبة وتوجعت دخيلته : يا الهى .. ما أبأسها من نهاية ..

... والنهاية تقترب والأجساد تتقارب ... وتلتصق ، وجوقة الفقهاء سارعت فى ترديدها :

- لا اله إلا الله محمد رسول الله .. لا اله إلا الله محمد رسول الله ..

والشيخ تحول بكاؤه الى نحيب :

- يا رب خدنى .. أرفع روحى المعذبة إليك ، يا رب .. يا ..ر ..ب .

وتطلع الشيخ الى المقابر فى مرارة وسقطت رأسه على كتف عبد الحى وتقلصت أصابعه فوق جلبابه ، فاستدار عبد الحى يأخذة على صدرة :

- أننى لا أتحمل، لا أطيق يا رب أن أراه يوسد الثرى وأنا حى، الشباب يوارى التراب والجيفه تدب فوقه، يا رب ماذا فعلت ؟ .. ماذا جنت يداى فى دنياى حتى أذوق كل هذا العذاب؟.. ارحمنى يا الله .. ارحمنى ..

توقف الركب أمام المقابر وتقطعت انفاس الشيخ، وتراخت يديه، وابتدأ جسده ينزلق لأسفل فأحتضنه عبد الحى يمنعه من السقوط :

- الشيخ يحتضر .

قطعت صرخة عبد الحى السكون الكئيب الذى لف المشيعين، فتعالت الأصوات من جديد، وتدافع الناس ملتفين حول الشيخ ولا من أحد يريد أن يسند ثقل الجسد مع عبد الحى ، فقط راحت أقدامهم تدوس قدميه فى قسوة تهرسهما، سرى الألم موجعاً الى كيانه فترك الشيخ وتراجع للوراء، وتقدم من خلفه شخص ليحتل مكانه، لكنه داس على فردة حذائه فانخلعت من قدمه، دفع من حوله ليبتعدوا عنه كى يستطيع الانحناء بلا جدوى، صرخ فيهم :

- حذائى الجديد .

تراجعت الأجساد قليلاً وانحنى عبد الحى يتحسس الأرض بيديه ولكن سرعان ما أطبقت الأجساد عليه ملتحمة من جديد، شعر عبد الحى أن أنفاسه تكاد تختنق، وأن حذاءه ضائع لا محالة، امتلأت أعماقه بالغضب، فراح يلطم من حوله بيديه فى ضراوة، ويدفعهم بعيداً عنه صارخاً من بين أنيابه :

- ابتعدوا يا أولاد الكلاب.. حذائى الجديد يا بهائم .

تراجع الجميع من حوله فى ذهول، واحتضنت عيناه فردة الحذاء وقد رقدت غير بعيدة عنه فوق الثرى، فألتقطها بلهفة، ثم أعتدل وسار مبتعداً وفى عينيه آثار دموع .

مجلة الأدب عدد مايو ١٩٦٢

الراغبون

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. في ذكري المولد الشريف

أزاح الطعام من أمامه زاهدا وقال لزوجته :

- احملي هذا الطعام بعيدا عني ، فلا رغبة لي في الأكل

نظرت إليه في حزن مشفقة وقالت :

- إن لم تكن بك رغبة في هذا الصنف ،حاول أن تأكل منه اليوم وسوف أطهو لك غدا ما تحب .

لم يمد يدا إلي الطعام ، ولم يعقب علي كلامها بل قام إلي صلاة المغرب ونوي مكبرا ثم استغرق في عبادته . قررت أن تلحق به ، تمنطقت بطرحة الصلاة ووقفت وراءه تصلي ، لكن ذهنها ظل يعمل متسائلا :

أننا في شهر رمضان . فكيف لا يتبلع بلقيمات . لعله سيرجع عن عزمه إذا ما انتهي من صلاته . هو دائما يكون هادئ النفس بعد الصلاة .

سلم عن يمينه ثم عن يساره ، ورفع يديه يدعو ، وهي مستغرقة في تفكيرها :

أليس من الأوفق أن يأكل أولا

حين انتهي من دعائه . نهض وبدلا من ان يتجه إلي الطعام جلس في ركن من الحجرة مهموما .

قالت لنفسها:

محال أن يكون سبب عزوفه عن الطعام أنه يكره الباذنجان المحمر .

اقتربت منه في تودد ، وجلست إلي جانبه ثم همست :

- ألا تتبلع بلقيمات . لك يوم لم تأكل فيه شيئا ، وعملك شاق

فجأة وجدته ينفجر صاخبا :

- لي يوم لم اكل .. وكيف أكل وهناك مئات الآلاف لم يأكلوا منذ أيام وأيام لأنهم لا يجدون طعاما ، و يتساقطون موتي من الجوع ، والعالم كله يأكل ويرمي إليهم بكلمات الصبر والصمود والوعود . ماذا سنقول لربنا كيف سيشفع لنا رسولنا يوم العرض العظيم وقد أوصانا أن نكون جسدا واحدا. كيف صار حالنا إلي هذا الهوان ، وهنا إلي هذه الدرجة .. كيف ؟ .

.. وانفجرت دموعه متساقطة . وقد ملأه إحساس عظيم بالهوان والعجز:

: ماذا يستطيع أن يفعل لهم ، أولئك الأخوة في الله ، هناك في البوسنة والصومال والهند وأفغانستان ؟.. بكت لبكائه ، وقررت أن لا تأكل هي الأخرى ، بل لقد شعرت بالندم لأنها صنعت الطعام

.. كثيرا ما راح يحلم في جلساته الطويلة مع جريدته يتابع أخبار المسلمين في كل مكان ، بأنه قد تخلص من قيود جسده ، وأنه أصبح روحا تطير إلي كل مكان يريد .

.. يذهب إلي البوسنة فينقذ النساء من الاغتصاب ، ويدمر بالغضب أهل الفجر والعدوان .

.. يطير إلي الصومال فيزجر النساء قادة الخلق وينهاهم عن أعمال الخراب في بلاد المسلمين .

.. يحارب الماجوس ومضطهدي الإسلام في كشمير والفلبين..

.. يضرب بيد اللوم علي أيدي من حملوا السلاح في أفغانستان ضد الشيوعيين حتى حرروا بلدهم، ولما انتصروا انقلبوا بالفتنة وحب الذات حربا علي بعضهم البعض . وصار المسلم يرفع سلاحه في وجه أخيه المسلم ، بل ويقتله .. والقاتل والمقتول في النار

قال: لم يا رسول الله ؟

قال عليه الصلاة والسلام : لأن كل واحد منهما كان حريصا علي قتل صاحبه .

وتهبط روحه من تحليقها . ليجد نفسه في الحجرة الوحيدة التي يعيش فيها مع زوجته بلا أطفال :

: آه للأطفال . هو يريد أن ينجب منهم عشرات ولكن الله لا يريد ، فالحمد لله

: وما يدريك .. لعلها رحمة من الرحمن الرحيم . حتى لا يعيشوا ما تعيشه من ألم . أو يطاردوا ويجوعوا و يقتلوا ، ألا يقتل الأبرياء في الطرقات بأيدي من يدعون أنهم حماة الإسلام .. آه ... آه .. وابلاءاه ...

: ألا من مغيث..

: العون يا الله..

الكفـــن

ـ ربنا يعوض يا سيدتى ..
.. وتنتهي تنهيدتها . . تسكت ، لتطفح أوجاعها فترتعش التجاعيد البارزة التى تدفن فمها :
ـ أنا أعرفه .. ليس هناك أحد غيره .. عودة . . عود ة هو الذى سرق القرط .. سرق ثمن كفنى .
.. وتغيم عيناها بحزن وكآبة :
ـ كنت أتمنى ألا أضايق أحد لما أموت ، فكفاكم أنى أضايقكم وأنا حية ، فقط كنت احلف ولو ثمن كفنى . . لكنه راح .. راح يا سيدتى .. أكل .
.. وتقفز فوق مخيلتها صورة عودة وهو جالس وسط الزقاق ينادى على اللحم وفمه المفتوح عن آخره يكاد يبتلها وسط عوائه : كل .. كل وتغذى بعشرة قروش الضأن يا حلو .
.. فتلهث وقد فاضت الدموع من مآقيها :
ـ والنبى هو .. هو اللص يا سيدتى، ليس هناك أحد غيره أخذ القرط من الصندوق أثناء غيبتى عن الدار وباعه ،، باعه واشترى لحما ليتاجر فيه، اشترى لحم بثمن كفنى يا سيدتى ز
.. ويرتعد جسدها وتزداد عيناها احمرارا وتسرع حبات الدمع فى تساقطها لتتعثر على وجهها وتفتح فمها لتكمل، تدعو على عودة لكن صوتها محتبس ، تخنقه غصة تملأ حلقها وتدفن معظم كلماتها . كل ما يسمع حشرجة تطفو وتغوص كأنين حيوان جريح ثم تذوب الحشرجة فى تشنيج حاد . وتنحني السيدة من فوق المصطبة على كتفها مواسية اصبرى .. اصبري يا خالتى ولك على أن اجعل العمدة زوجى بمجرد عودته من الخارج يستدعى عودة ويلزمه بإعادة ثم القرط أو يسفره للمركز حيث ينال جزاءه .
وتنتفض العجوز دافعة الهواء بذراعيها :
ـ لا .. لا داعى للأذى يا سيدتى قد نكون ظالميه، دعيه .. دعيه لله يا سيدتى ، يا ويل من يرتضى لنفسه أن يسلب الأرامل ثمرة شقائهم ، فقط . آ..ا..آه .. من الخوف أصبحت أخاف يا سيدتى وأنا من لم تعرف الخوف طيلة حياتها ، انظرى ..انظرى يا سيدتى ..
.. وتجذب جلبابها الأسود كاشفة ظهرها ، وعلى عظام كتفها تبدو كدمة زرقاء :
ـ ليلة البارحة خرجت إلى الخلاء لأقضى حاجة فوجدت الظلام يغص باللصوص ، كانت وجوههم مخيفة بينما عيونهم يتطاير منها الشرر ، ولما رأونى صرخوا : امسكوها .. امسكوها. . خفت .. خفت يا سيدتى ورجعت أجرى إلى دارى فتعثرت بعتبة الباب ووقعت .. وقعت والنبى يا سيدتى .. وقعت . وتتأوه رادة الجلباب علي كتفها وعبراتها تتساقط فى هوان : ـ فقط ماذا جنيت فى حق عود ة حتى يفعل بى كل هذا ؟ أننى امرأة وحيدة غلبانة .، فى حياتى لم أوذ أحدا .. وكيف أوذى أحدا من الناس وأنا أعيش برضاهم .. يا ربى .. ألم يجد عودة فى القرية أحدا غيرى ليذيقه كل هذا العذاب الذى لا استحقه أبدا .. لا استحقه والله يا سيدتى فأنا وحيدة، غلبانه .. غلبانة ، كل ما كنت املكه من دنياى : القرط ثمن كفنى ومع هذا لم يجد عودة فى القرية كلها من يستأهل السرقة سواى ، سوى كفنى ، أن ترينه يا سيدتى سرقنى لأننى وحيدة غلبانة ليس لى من معين!!.
.. وسيدتها تنزل من فوق المصطبة، تتثاءب كلمات عن ضرورة الصبر، وأصابعها ممتدة بقروش، لكن العجوز تبعد الأصابع الممتدة بيد وتستند على يدها الأخرى وتكافح حتى تنهض :
ـ أبقها .. أبقها يا سيدتى فمنذ الساعة سآتيك بكل مليم أتحصل عليه لتخفيه لى فلن احتفظ بشىء فى الدار فالدنيا لم يعد فيها آمان ، اصبح ناسها وحوشاً تستحل سرقة الأموات .
.. وتستجيب السيدة فتسحب أصابعها ، وترفع العجوز ذ راعهما وتمس دموعها ثم تمضى خارجة هى تدعو للسيدة بطول البقاء، وتروح العجوز تنتقل من دار لدار تحكى حكايتها ولما أوشكت الشمس على المغيب اتجهت إلى دارها أغلقت الباب ثم دست يدها فى جيب جلبابها

وراحت تتحسس ما جمعت من نقود : أربعة .. أربعة قروش ونصف قرش، لو لم ارفض القروش الخمسة التى كانت زوجة العمدة ستعطيها لى لأصبحت تسعة .. تسعة قروش ثمن متر دمور، ويبقى على استكمال الكفن ثلاثة أمتار ، ولكن أين هو ثمن المتر ؟ هكذا أنا دائماً قليلة البخت ويجتاحها شعور بالمرارة والعجز، فتروح تتمتم من خلال دموعها : الله يا سامحك يا عودة .. الله يا سامحك يا عودة ، ،تنحنى تنبش الأرض بأظافرها ،، تحفرها : انه حظى فى الحياة .. لقد كتب على أن أعانى الشقاء حية وميته . وتتسع الحفرة فتعتدل العجوز وتكور ما يجيبها من قروش فى خرقة توسدها باطن الحفرة وتهيل فوقها التراب . ويخبو النور المنصب من الكوة التى بأعلى الجدار ويروح يزوى حتى يستحيل سوادا وتريح العجوز جسدها فوق الأسمال الباليه التى تتخذ منهما حشية وأحاسيسها مضعضعة تماما ، وتغمض عينيها ومن بعد سحيق يتردد فى أعماقها صوت عودة : كل .. كل وأتغذى بعشرة قروش الضأن . فتنكمش فى رقدتها ، وتتجمد الدموع فى مآقيها ، وفى توجس ترتفع جفونها المتآكلة مترددة لتصطدم بعظام جبهتها ، فيبدو عودة واقفا أمامها فتعتدل جاثية على ركبتيها وتزحف تجاهه وصوتها يتحشرج متوسلا فى رعب :

ـ خذها ..خدها يا عودة ،، القروش عندك .. هناك ، هناك فى الحفرة جوار الحائط ، خذها يا عودة .. خذها وسأعطيك كل مليم أتحصل عليه ، فقط . . لما أموت اشترى لى الكفن هه يا عودة .. اشتر لى الكفن .. الكفن. .

.. وانكفأت على وجهها تبكى وتصرخ فى جنون .

مجلة ا لرسالة عدد أغسطس ١٩٦٤

أم النـــمـــر

- ١ -

أم النمر ... هكذا عرفتها قرية " البرارى " بصحراء محافظة البحيرة وهكذا أرادت أن تكون أماً لنمر قوى .. جبار ، يستطيع أن يحميها ويحمى دارها وأرضها وابنتها نرجس مثلما كان يفعل أبو النمر الحاج عبد الجبار رحمة الله عليه ، فلقد مات وترك لها مسئولية " نمر " و " نرجس " لكن نرجس كانت مسئولياتها بسيطة، فهى بطبعها فتاة طيبة ومطيعة، أما نمر فهو مشاكس، صغير السن حقاً لكنه دائم المتمرد على كل أوامرها، وهى تخاف غاية الخوف من أن يصبح صورة من أقرانه فى لين العود، والتفرنج فى الملبس، وتافهة التطلعات .

فلقد كانت الحاجة " مجيدة " وهذا هو اسم أم النمر الذى نسيه الناس وكادت هى أيضا أن تنساه، تريد أن تربى نمر على طبع المرحوم لكى يكون صورة منه، فهى منذ الصغر تربى فيه الشهامة والرجولة والسيادة، فالرجل هو السيد والآمر المطاع، والأسد الجسور الذى يزود عن الديار ..

كان يذهب إلى مدرسة القرية الابتدائية، فهو تلميذ فى السنة الرابعة، أى فى العاشرة من عمره، ورغم صغر سنه كانت تعلمه الفلاحة، وركوب الخيل، وتجعله يصرخ فى الفلاحين فيرعبهم، ويزوم فى أخته نرجس فيجعلها تفر إلى حجرتها لتعتكف طالبة الأمان ورغم كونها تكبره فى السن .

- ٢ -

وحين كبر نمر وذهب إلى المدرسة الإعدادية بمدينة " حوش عيسى " المجاورة، لم تشأن أن يبتعد عنها أو عن رقابتها، فباعت الأرض والدار واشترت أرضاً وبيتاً وحدائق بالمدينة الصغيرة حيث المدرسة الإعدادية.

وظلت أم النمر تحمل نمرها المسئولية، وتناقشه فى مشاكل الحدائق والأرض والأسمدة والمبيدات، وتجبره على ركوب الحصان الذى بقى من ذكرى المرحوم عبد الجبار حاملا بندقيته ليدور حول الدار والحديقة، وحين جاء عريس لنرجس أصرت على أن يكون الحديث مع نمر، ورغم كل ما شعر به العريس وأهله من حرج الحديث إلى صبى يصغرهم كثيراً فى السن إلا إنهم رضخوا وجلسوا إلى نمر يطلبون منه يد نرجس، ويقرءون الفاتحة، ويتفقون على إجراءات الفرح كما خططت أم نمر لنمر ..

كان هدف أم النمر أن تشعر أصهارها الجدد بان لهم رجلا يحميهم ويزود عن حقوقهم وعرضهم، ولتؤكد لنمر انه رجل الدار المسئول عن مستقبل من بالدار .

وتزوجت نرجس من عبد الحليم وسافرت إلى القاهرة لتعيش هناك، وكبر نمر وبدأت شعيرات سوداء تنبت فى وجهه لتشكل بشائر شارب كثيف ولحية واعدة .. ولم يكن هناك من هو أكثر سعادة من أم نمر بنمرها الذى يكبر تحت سيطرتها وتوجيهاتها لتصنع منه عبد الجبار الجديد ..

- ٣ -

لكن سرور أم النمر لم يطل كثيراً، فلقد أصبح نمو نمر يمثل بشائر غير طيبة تأتى مع تصرفاته الشاذة الذى تتمثل فى عزوفه عن ركوب الحصان وعن رعاية الأرض، ثم زاد الأمر وفاض بكثرة سفره إلى " دمنهور " لشراء شرائط الكاسيت لسماع أغنيات المغنيين التى تفيض بالشوق والحب والكلام الفارغ الرقيع.

طارد الأرق أم النمر حتى باتت لا تنام، وحين فاض بها الكيل والخوف والقلق سافرت إلى أخيها شاكر فى " البرارى " وسألته المشورة، كانت متأكدة من أنه سوف يثور ويركب حصانه

ويسرع إلى ذلك النمر المتمرد، ويربطه إلى جذع شجرة ويطيح فيه ضرباً، ولكن الغريب أن شاكر استقبل الأمر باستخفاف، عكس ابنته الصغيرة زينه التى أعلنت خجلها قائلة :

- مزيكة، يا كسوفى يا بوى، وهل هناك رجال يستمعون للمزية، ماذا تركوا إذا للبنات ؟

إلا أن شاكر قال :

- ما بها الموسيقى، إنها تدل على إنه ولد حساس كريم المشاعر، هادئ الخلق.

وكشرت أم النمر عن أنيابها وزامت :

- ولكن المرحوم عبد الجبار عمره ما سمع مزيكة ولا سهر فى مكان هلس .

وضحك شاكر طويلاً وهو يقول لها :

- ولكن أبونا يا أم النمر كان يعشق الموسيقى والغناء حتى إنه تزوج من إحدى المغنيات المعروفات فى زمانه من شدة وجده .

وانتفضت أم النمر تغادر دار أخيها شاكر وهى تحمد الله أن نمر قد تربى بعيداً عن هذا الخال " التلفان "، ولكنها قررت أن ابنته أشد رجولة منه، وأنها هى من ستصلح ولدها حين تكبر ..

كبر نمر وواصل دراسته بنجاح كان يصل إلى حد التفوق فى سنوات كثيرة ومنها الثانوية العامة، وقد أوصله تفوقه لان جعله يختار ما يشاء من الكليات، فكان اختياره لكلية الهندسة بجامعة القاهرة .

- ٤ -

..وإذا كانت السنوات قد مرت سراعاً ، فإن أم النمر لم تنس شيئين ، الأول : موقف زينة من الموسيقى الذى أشعرها بأنها جزء منها، وإنها العروس التى يجب أن تمهد لنمر للزواج منها، لتكون حفظاً له من الانحراف عن أهدافها لأن زينه مثلها ناعمة المظهر، قوية الشخصية ؛ والثانى هو : تنمية مشاعر الرجولة والتفوق على الجنس الآخر لدى نمر، وعدم التوقف عن توضيحها له كيف كانت هى طائعة لزوجها ساهرة على راحته لأن هذا هو واجبها .

وقضى نمر سنوات الدراسة مع أمه وشغالتهم العجوز فى شقة استأجرها بحى الزمالك، أما أيام الإجازة فكان يعود مع أم النمر إلى حوش عيسى حيث السكن والمستقر والانتماء كما كانت تردد له دائماً الحاجة مجيدة، وهو الاسم الذى كان يفضل نمر مناداة أمه به، فلقد كانت ترى أن الدراسة هى فقط من أجل العلم والمنظر الإجماعى، أما العمل والاستقرار فى النهاية فيجب ان يكون فى الأرض، فالقوة تتمثل فيما يملك الإنسان، ولقد كان عبد الجبار قوياً بأرضه، ويجب أن يكون هذا هو حال ابنه الوحيد نمر عبد الجبار .

لكن وحين انتهت سنوات الدراسة الجامعية بالنجاح، وجدت أم النمر نمرها فى طريق آخر تماماً، فلقد عين معيداً بالكلية، وأبتسم نمر فى سعادة واستسلام مصطنع وقال لها :

- قضاء الله يا حاجه مجيدة . ألا نستسلم له ؟

وحملت أم النمر أمتعتها وتركت ابنها لوظيفته، وعادت هى وحيدة إلى دارها بحوش عيسى حيث السكن والمستقر والانتماء، كما كانت تردد عليه دائما الحاجة مجيدة، وهو الاسم الذى كان يفضل نمر مناداة أمه به .

- ٥ -

ليال ثلاث لم تر فيها عيناها النوم، كان الهاجس الوحيد : هل أنتهى دورها ؟؟

هل أفلت نمر من بين أصابعها ؟.

هل تنتهى بموتها قصة كفاحها وعبد الجبار مع رمال الجبل، وضد البرد والجفاف وقسوة الصحراء، فتباع الأرض، وتهجر الدار، ليصير كل عمرها إلى ضياع ؟!! .

لقد دفعت عبد الجبار دفعا بعد زواجها منه لأن يهجر عمله بالجمعية الزراعية ، ليضع يده على أرض رملية لا زرع فيها ولا ماء، كانت تسانده بقوة عائلتها، ومع مرور الأيام أصبح عبد الجبار هو السند القوى لعائلتها، بعد أن أصبحت البرارى تهابه لصرامته وجهامة وجهه، ، وبعد

أن خضعت له الرمال فاخضرت وحين زرعها نمت وأنتجت، وإن كان هذا جميعه يتحول إلى فيض من اللطف والحنان حين يخلو بها، فلقد ظلت مستشاره وعقله المدبر، وكانت وسيلتها إلى ذلك انصياعها الظاهرى لكل ما يأمر به وطاعتها لأوامره طاعة عمياء أمام الناس، أما حين تنفرد به فهو طوع بنانها.

إذا عليها أن تسرع فى إنقاذ نمر، ولن ينقذ نمر من انحرافاته إلا زوجة تسوسه، زوجة مثلها تماما.

- ٦ -

مع شروق الشمس قررت أم النمر أن تبدأ العمل، أرسلت شغالتها إلى أخيها شاكر تطلب منه أن يبعث معها ابنته زينة لتقضى إجازة المدارس لتؤنس وحدتها بعد رحيل نمر ونرجس.

وحين قاربت الإجازة على الانتهاء، كانت أم النمر قد أقنعت أخاها بأن ينقل ابنته لمدرسة حوش عيسى لتعيش فى كنف عمتها تربيها وتدربها لتكون زينة النمر، أما نمر فلقد شق طريقه بالجامعة معيدا ناجحا، ولكن لشهور قليلة ثم بدأ الملل يتسرب إلى نفسه، وتحدث عبر التليفون إلى أمه يخطرها بأنه قد ترك مهنة التدريس ليعمل فى مكتب استشارى، ثم جاءتها رسالة ثانية لتعلنها بأنه قد أصبح يعمل فى شركة من شركات المقاولات الضخمة.

وما كان من أم النمر إلا أن هزت رأسها قائلة فى ثقة:

- نمر قلق لأنه يبحث عن مكانه الصحيح، وهو ما سينتهى به قطعا لأن يعود إلى دار عبد الجبار، ليكمل المسيرة.

أكدت أم النمر لزينة أن الأيام ستثبت صدق ظنها، وأن نمر مهما دار ودار سوف يكون زوجا لها، لتصلح حاله مثلما كانت هى لأبيه، لكن الأيام لم تأت بما أرادت أم النمر، فها هو ذا نمر يكتب لها بأنه قد التقى بفتاة أجنبية كانت تزور أحد مواقع البناء، وأنهما اتفقا على الخطبة، وقد يدعوها قريبا لعقد قرانه.

وأصيبت أم النمر بخيبة أمل أكبر مما أصيبت به زينة، ولكنها لم تيأس، وقررت أن تشد الرحال إلى حيث يقيم النمر، وأعدت للأمر عدته، وعزمت ألا تعود إلا وهى منتصرة، ولكنها حين وصلت لبيت ابنها كان قد أنهى عنها كل شىء، بعد أن اكتشف الهوة التى تحول بينه وبين الزواج من فتاته الباهرة الجمال، فهى مختلفة تمام الاختلاف عن زوجة الحاج عبد الجبار، فأسرع يعلن فسخ الخطبة غانما بالفرار، وحين لحقت به أم النمر أعلنها بأسفه لتهوره فى ذاك الأمر دون أن يأخذ مشورتها، وأسرعت أم النمر تدعو نمرها للعودة معها لينتقى من بنات أهله وبلده من هى على خلقه، ودبرت من الخطط والمناسبات التى مكنته خلالها من رؤية كل بنات البلدة، لكنه لم يجد بغيته فى إحداهن، فلقد تعمدت أن تريه منعدمات الجمال، أما زينة فلقد أخفتها عنه، فهى تريد أن تعرف ماذا يتمنى نمرها فى أنثاه، ثم تكون المواجهة.

أعلن نمر لزملائه فى العمل إخفاقه فى العثور على العروس التى يرجوها، فأعلنوا أنهم سوف يساعدونه فى البحث عنها، ولم لا فنمر يملك شقة بأرقى أحياء القاهرة، ولديه من المال الكثير، وهو فتى عصرى رغم كونه لم يتخلص تماما من نشأته الريفية التى تظهر فى نظرته للمرأة وضرورة طاعتها لزوجها !.

وتسابق زملاء نمر يدعونه لمشاهدة أقاربهم وجيرانهم من فتيات، لكنه كان يجد ما يحول بينه والاقتناع بهن، فهذه لا ترى فى الزواج غير السفر والتنقل بين النوادى وسهرات المعارف لإضاعة الوقت، وتلك تعشق الجلوس إلى التلفاز، وثالثة ترى حياتها فى العمل.

أما الحاجة مجيدة فهى أيضا تريد أن تؤكد قدرتها على أن تسوس نمرها، كما ساست أباه وبنت معه أحلى أيام العمر، لذلك قررت الرحيل للقاهرة ودون أن تخطر ابنها، وشددت على شغالتها أن ترد على التليفون فى حال سؤال ابنها عنها بأنها نائمة أو تزور مريض، أو تتوضأ للصلاة، لكنها قالت مؤكدة :

- إياك أن تقولى له أننى مسافرة .

- ٧ -

لما وصلت أم النمر إلى محطة القاهرة وقد صحبت معها زينة، استقلت تاكسى وأعطت السائق عنوان بيت ابنتها نرجس، وقبل أن تنهى ابنتها تقبيل يدها أعلنتها بأنها قررت أن تجعل من زينة نموذجا للفتاة العصرية مهما كلف الأمر من جهد ومال، فالمهم أن يسقط نمرها أسيرا فى حب ابنة أخيها.

بدأت نرجس فى تنفيذ أوامر أمها، فصحبت زينة إلى الكوافير ليصبغ شعرها ويصففه على أحدث موضة، ومنه ذهبت بها إلى أرقى بيوت الأزياء لتنتقى لها أحدث وأجمل الموديلات، ثم اتجهت معها إلى أشهر معاهد الرشاقة والتجميل لتبدأ تدريبات الرشاقة والتمرين على سلوكيات المجتمعات الراقية.

كانت أم النمر أسعد الناس وهى ترى زينة تتحول وتتبدل أمامها لتصبح بدرا تتوارى أمامه كل جميلات العالم، ولما اطمأنت، قررت أم جمعت حقائبها، واتجهت إلى بيت ابنها .

حين فتح نمر باب شقته ووجد الحاجة مجيدة تسد الباب بجسدها وأحمالها، هلل مرحبا :

- أهلا يا ست الحاجة.. حمدا لله على سلامة الوصول

كانت فرحة نمر برؤية والدته صادقة، فلقد مل أصحابه، ومل من رؤية الفتيات اللاتى رآهن، واشتاق لرؤية أمه وما تمثله من نموذجية المرأة الجميلة المطيعة لزوجها، وازداد ترحيبه حين تكشفت خلفية مشهد الوصول عن مجيء أمه دون أن تصطحب زينة :

- يا ألف أهلا وسهلا .. وإن كنت عاتبا عليك لأنك لم تخطرينى بموعد وصولك لانتظرك بسيارتى فى محطة القطار، فلو عرفت لذهبت إلى حوش عيسى لأعود بك.

قالت له مهونة :

- أعلم يا ولدى بكثرة مشاغلك، ولذلك قررت الحضور فجأة حتى لا أشغلك عن أعمالك، تعرف قلب الأم يا ولدى.

- ٨ -

فى الصباح خرج نمر نشطا إلى عمله، ونشطت هى إلى العمل، أمسكت سماعة التليفون، وطلبت ابنتها، وقالت لها لتذهب مع زينة إلى النادى لأن نمر أنبأها بأنه مدعو على الغذاء مع مجموعة من أصدقائه .

لاحظ نمر أن عيون أصدقائه قد بحلقت منبهرة تتابع فتاة دخلت متجهة لمنضدة قريبة، فاتجه بعينيه إليها ليبهره جمالها الأخاذ، وحين التقت العيون للحظة خاطفة، رأى خجل العذارى يصبغ الوجنتين بالحمرة، ورأى الرأس يشيح فى خجل مبتعدا عن مواجهته، فاجتاحه الانبهار، وانهالت التساؤلات : ترى من هى، وهل هى فى زيارة عارضة للنادى، أم تراها ابنة عضو جديد، فهو لم يرها من قبل ؟..

سقطت حقيبة يدها وهى تحرك أصابعها لتمسك بكوب المشروب الذى طلبته، ويا للعجب فهو مشروب الفراولة الذى يعشقه، أسرع نمر واثبا يتناول الحقيبة ويناولها لها قائلا فى تلعثم لم يتعوده فى تعامله مع النساء:

- حقيبتك يا آنسة.

أومأت برأسها شاكرة ثم أسرعت منصرفة بعد أن وضعت ثمن المشروب على المائدة، لكنه تابعها معتذرا:

- أرجو ألا أكون قد ضايقتك.

لم ترد عليه وأشارت إلى تاكسى وركبت، ووقف هو وقد أصابته خيبة أمل، ترى هل ستعود ثانية، يا ليت حتى تحضر أم النمر خطبته هذه المرة.

رأت أم النمر نجاح مخططها على وجه نمر الساهم، وأكده هدوءه غير المعتاد، وكادت تصرخ بالفرح حين قال لها النمر أنه سيضطر للغداء بالنادى لمرات فى الأيام القادمة، فهناك عميل جديد سوف يناقش معه تفاصيل مشروعه الجديد.
حين رآها نمر قد حضرت فى نفس الموعد، أيقن أن الظروف قد تهيأت له، وقرر ألا يترك فريسته تهرب كما هربت منه قبلا، لذلك تحين فرصة تهيؤها للانصراف وسبقها فى الخروج، ليتمكن من التحدث إليها، لكنه حين اقتربت منه تلعثم، وإن جاهد لينقل لها حسن مقصده، وأنه لا يريد غير التعرف عليها، لكنها لم ترد عليه، فليست لديها تعليمات من أم النمر لمواجهة مثل هذا التصرف، وإن احتوته بنظرة زلزلت كيانه.
فى اليوم الثالث، منت عليه بكلمات تفيض رقة، تنبئه بأنه إن أراد ذلك فالطريق هو بيت أهلها، ثم اختفت وتركته تائها.
فى اليوم الرابع اقترب النمر أكثر وقد تجهز بكل أسلحته، قال :
- إذا لنتعارف، كلمات تعرفين منها من أكون، وأعرف منها من تكونين ؟.
قالت فى نفسها وهل هى تريد أن تعرف عنه أكثر مما تعرفه من قلبها الذى أحبه منذ عرفت الأنوثة طريقها إليها، أما أنا فقتاة قروية من أسرة محافظة، وأنها فى زيارة لابنة عمتها لأيام ثم تعود إلى قريتهم.
قال فى سرور، فكل الصفات تستهويه:
- إذا أعطينى عنوان ابنة عمتك وسوف أصحب أمى للزيارة.
قالت فى دلال :
- حين ألقاك فى مرة قادمة.
ومرت أيام ثلاثة وهى لا تذهب إلى النادى، وقرر أن يقطع وحدته ون لم يقطع الأمل، فدعى أخته وزوجها إلى رفقته، أما الحاجة مجيدة فهى تصر كعادتها على البقاء بالبيت، فهى ترى أن خروج المرأة ضررا إن لم يكن للضرورة.
فى النادى وقد راحت عيناه تقلب المناضد من حوله بحثا عنها، وجدها تجلس بعيدا عنهم، ولكنه فوجئ بأخته تغادرهم وتتجه إليها وتقبلها، وبدلا من أن تدعوها للجلوس معهم، وجد الفتاة تنصرف خارجة، نهض يلحق باخته قبل أن تصل قائلا فى همس :
- هل تعرفينها ؟.
قالت نرجس مبتسمة :
- ابنة عمتها صديقة قديمة وقد عرفتنى بها .
قال فى غيض :
- إذا لم تدعينها للغداء معنا.
قالت :
- لم تكن لتقبل ومعى رجلان، هى من أسرة محافظة.
وسارعت بتغيير موضوع الحديث وهى تجلس بجوار زوجها متسائلة :
- ألن تطلب لنا الغداء ؟.
عاد النمر إلى البيت مهموما شارد الذهن يفكر كيف سيفاتح أمه بأمر فتاة النادى التى تعرفها أخته ولا يعرف هو حتى اسمها، وهل يطلب من أمه أن تتقصى عنها من نرجس، ليذهبا لزيارة أسرته ؟.. لكن رنين جرس الباب رحمه من دوامة التفكير، فتكاسل قليلا عن القيام ليرى من القادم، ثم تذكر وجود أمه فخجل من أن يتركها لتفعل ذلك فتحرك إلى الصالة، ولكنه وجد الباب مفتوحا، ليفتح هو فمه مذهولا، فلقد كانت فتاة النادى واقفة قبالة أمه تقبلها فى شوق، تساءل فى بلاهة: ترى هل تعرفها أمى أيضا ؟!..
قالت الحاجة مجيدة تقدمها له :
- زينة ابنة خالك شاكر يا ولدى، إنها بالقاهرة فى زيارة أختك منذ أيام.

أراد أن يعاتبها، أن يطلب أخته على التليفون ويلومها لإخفائها حقيقة فتاته الجميلة، لكنه احنى رأسه وانسحب إلى حجرته يتساءل : هل هذه هى زينة القروية التى لم ير وجهها كاملا ذات مرة منذ كبرت، فهى تخفيه دائما وراء شالها الأسمر، لكن أمه قطعت عليه تفكيره بدخولها وراءه، فاستدار يسألها فى شك :

- بذمتك يا أمى هل الفتاة التى رأيتها الآن زينة ابنة عمى بحق، فنرجس اختى قد سخرت منى فى النادى وقالت أنها قريبة صديقة لها.

ضحكت أم النمر فى سعادة قائلة :

- لأن زينة اشترطت عليها أنها ستنضم إليكم لو أنك عرفتها، لكن حين وجدتك ما زلت لا تتعرف عليها، أصيبت بالحرج وطلبت من أختك أن تسمح لها بالعودة إلى البيت، ثم تعال هنا يا ابن عبد الجبار وقل لى، وهل كانت زينة فى يوم على غير ما هى عليه، ولكنك لم تكن ترى غير كونها ابنة خالك.

- إذا سأرضخ لأرادتك يا أمى وأتزوج من قريتنا.

قاطعته قائلة :

- ولكنها ليست إرادتى، هى رغبتك أنت.

قال النمر راضخا :

- إذا هى رغبتى أنا، وعلى ذلك فلنسافر إلى خالى شاكر لتطلبى منه أن يزوجها لى.

انتابتها شعور الانتصار وهى تسمعه يطلب الزواج من الفتاة التى اختارتها له، فهى التى ستقود مسيرته ليعود ليواصل توسعة الأرض، وتنمية البيت.

- ١٠ -

.. ولكن ليس كل ما تطلبه أم النمر تدركه، فبعد زواج زينة من نمر، تحولت زينة لتصبح خاتما فى إصبع نمرها، لا تفاوضه ولا تناوشه، ولا تتظاهر بالرضوخ لكل ما يراه، فهى راضخة له تمام الرضوخ ، وتعبر عن ذلك بكلمات قليلات :

- ما يراه النمر نافذ.

وهكذا تحطمت أحلام الحاجة مجيدة فى ابنة أخيها، ولكن هل لأم النمر أن تيأس ؟.

.. محال .

إذا فعليها أن تستعد وتخطط، ثم تتجه إلى ابنتها نرجس وزوجها ليكملا مسيرتها وعبد الجبار.

مجلة حـــواء سبتمبر ١٩٩٠

الأشـــرار

البلدة كلها لم تنم .. ظلت متيقظة ترقب.. ولكن أحدا لم يجرؤ على الخروج من داره بعد ما سرى الهمس - مؤكدا - أن"عوض الحداد " و"متولى أبو عبد الحى " وكثيرين من الأشرار قد جلبهم " عطا " ليجبروا الناس على انتخابه...

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يحدث فيها هذا فلقد سبقتها مرة منذ أعوام، ومع ذلك لم ينجح " عطا "، وفاز " الشيخ محمد أبو هاشم "، وظلت البلدة تصخب للصباح ...

ومرت أيام ..

وطعن " عطا " فى صحة الانتخاب، وأوقف التقرير، ولم يعتمد " الشيخ محمد " عمدة لنا .. ثم حكم بإعادة الانتخاب !..

كنا جميعا نعلم تماما أن نقود " عطا " هى التى فعلت هذا، وتمنى كل واحد فى البلدة لو يكون له فدانان لكي ينتخب "الشيخ محمد" .. أو لو أن الانتخاب للجميع، يومها .. لن يجرؤ " عطا " علي منافسته !..

انه يستطيع الأن أن يرهب عشرات من الناس مبلبلين لا يعرفون طريقهم إلا والمال يبدو بعيدا عند نهاية المسير، والآخرون يخافون " عوض الحداد " ويقسمون بكتاب الله وماسورة البندقية تحرق ظهورهم أن ينتخبوا " عطا " ..

انسللت من داري ومعي " مصطفي وعثمان ورجب والحاج أحمد " ... ولفنا الظلام لنطرق باب " الدوار "، كان " الشيخ محمد " يجلس في الحجرة الجانبية الكبيرة ومعه أشخاص .. يتحادثون في همس ويبتسمون .. ونقر " رجب " على الباب الموارب ودخلنا مطرقين ، وجلس الحاج أحمد متسلسلا ثم قال له الحكاية .. وقلنا من ورائه : أننا لن نسكت علي ما يحدث .. كنا نتكلم ونعرف أنه سيرفض ما نقترح، ولذلك لم ننتظر وخرجنا حانقين ..

كان علينا أن نفعل شيئا .. أي شئ لكى نوقف هذه المهزلة، قال " عثمان " :

– نطلب من عساكر النقطة يمنعوهم ..

أبتسم " الحاج أحمد " فى مرارة .. ابتسمنا، فلقد كنا نعرف مدى جبن هؤلاء الجنود، أنهم غرباء يحسون بالوحشة والخوف والوحدة وسط أرض مجهولة وأناس يكتنفهم الغموض، وهمس " مصطفى " فوفقناه، وتحركنا متفرقين ..

شبت النار فى ناعورة " عطا " وانطلقت الأعيرة من كل مكان . وتحرك الجنود .. أجبرهم الواجب .. ورأينا أشباحا كثيرة تفر منفلتة بعيداً عن البلدة .. فعدنا .. كان الظلام يلف الأزقة .. وصيحات الخفراء تملأ القرية بالحياة .. وصرخ " نور العرباوى :

– مين اللى جاى هناك ده ؟.

ولم نجبه، واقتربنا منه، فهمس ويده تحك أسفل ذقنه فى بله :

– يا ولاد الأيه .. ولله عرفتم أزاى تطفشوهم .. والله جدعان ..

وضحك وغلبه التثاؤب فتخلف عن ملاحقتنا وأوسعنا خطانا .. فلقد كان هناك الكثير لم ننجزه ..

كانت الدار صغيرة يلتف حولها النخيل والعتمة.. اختبأنا، وتقدم " رجب " ودق على الباب مرة ومرة ومرة . وأنقطع الطرق مرة واحدة وتحفزت أعصابنا وتصلبت ، وقطع صرير الباب الممطوط الصمت وتكلم " رجب " وصوت رفيع لامرأة ترتجف يقطع كلماته :

– فين الحاج متولى ؟ ..

– نايم عايز أيه يا خويا ..

– عوزينه ..

– دلوقتى يا وكستى مقدرش أصحيه ..

– ده أمر مهم ..

– تعاله الصبح .. مقدرش والنبى يا بنى .
وتقدمنا مقتربين من المرأة، وسبقنا رجب .. فدخل إلى الدهليز الصامت .. كان الجو ثقيلاً مريباً ، ومن ثقب رفيع كان ينسكب على الحائط خيط أحمر واهن من الضوء، دفعنا الباب بسرعة وقفزنا إلى الداخل .. ووقفت المرأة تحملق فى أشباحنا مرعوبة واللمبة الصفيح تتمايل على رأسها ! ..
كان " الحاج متولى " يجلس فى المندرة وحيدا وعظامه البارزة من فتحه الجلباب تنتفض تحت جلده .. قلت له :
– قوم معانا يا حج ..
تمتم متسائلا :
– خير ..
وأنقاد معنا فى استسلام وابتسامه صغيرة صفراء يحاول جاهداً أن يرسمها على شفتيه ..
وجلسنا فى دار السيد " شلبايه " .. وخرج "عثمان " و " رجب " ليأتوا بكل من أقسم " لعوض الحداد " على المصحف .. وظل " الحاج متولى " يردد لكل من يأتو به بلا روح :
– لا يا بنى يمينك باطل .. معلكش حرج لو رجعت فيه ..
ويسكت .. ويتفصد جبينه بالعرق .. ويرمقنا بعينيه الحابيتين : مش كفايه بقى ؟
ومع انبثاق خيوط النور تركناه فلقد كان عليه أن يؤذن فى الجامع الكبير .
وزاد عددنا ولم تعد الدار تتحملنا ولا الوسعايه التى أمامها .. واتجهنا نحو الجسر جميعاً وخلت البلدة الا من النساء ! ..
كان الضباب كثيفاً وكنا نسير مسرعين فى خطوات متلاحقة كالعدو .. وأصوات النعال والأقدام العارية وهى تحتك، تدب على الأرض، تثير الغبار حولنا .. ورائحة العرق والأنفاس اللاهثة والتراب تملأ الخياشيم، وصوت يعلو مرتفعاً :
– يا رب .
مرت بنا عربة " عطا " وقذفناها بالحجارة وتحطم الزجاج الخلفى .. وتوقفت العربة بعيداً .. ونزل السائق يلوح لنا بيديه وفمه مفتوح على آخره يبرطم :
– والله يا ولاد الكلب لأوديكم فى داهية .. يا بهايم يا بجم يا حيوانات .
.. واندفعنا نحوه والشرر يتطاير من عيوننا محنقين وأيدينا ترتفع فى قوة إلى السماء تتلاطم مرتجة بالتهديد .. وقفز السائق مرعوبا إلى السيارة، وأطلق لها العنان .. وصرخات متفرقة تتوعد وتسب وتلعن :
– قف يا أبن الفرطوس يا جبان يا نطع .. وحياة أبوك لاوريك .. مسيرك تقع فى أيدينا يا بتاع الكلب .. أبقى ورينا وشك يا ابن الوطا .
وتبخرت الأصوات .. وبدت أبنيه المدينة من بعيد .. متعالية فى شموخ وتحد ..
كان مبنى المديرية وساحتها يكتظان بنا، و" الحاج متولى " متربع على الأرض وشفتاه ترتجفان بهمهمة خفيفة مبهمة .. وخرج رجل من المبنى الأصفر وصاح :
– عمودية بيشة عامر .
.. أندفع من بيننا أشخاص، وفتحت فمى كالمخنوق ألهث .. وتعلقت أبصارنا بالباب تنتظر .. خرج جندى وزعق :
– السيد " عطا " ..
وترددت الهتافات متفرقة " يعيش الشيخ " عطا " " وحمله على الرقاب أنفار لا يتعدون العشرة وزغردت أمراه مأجورة تقف بجوار الباب الكبير .. وأرتد الصدى كالعواء .. وتسمرنا جميعاً .. ملأنا الذهول وصاح واحد :
– خدناها يا نسوان ..
وخرجوا من ساحة المديرية ..
أطل " عبد السلام الشلبى " من أعلى ولوح بذراعيه :

ـ النتيجة لسة ما ظهرتش يا جدعان ..
لم تصدقه، وابتدأت أجسادنا تتهاوى متساندة على الجدران .. وسؤال يضطرم فى أعماقنا : كيف سنعود إلى البلدة ؟ .. ومسحت بكفى .. شيئاً انسال على خدى ..
.. توالت الدقائق بطيئة مملة خانقة ..
.. أندفع من الداخل " حسن أبو عبد الحميد " وخلفه " جلال " يلوحان بأيدهم .. وشفاههم تنفرج وتغلق بلا صوت .. اندفعنا نحوهما نستفسر فى تخاذل مرير :
ـ خير يا جماعة ؟.
وبعد جهد، جمع " جلال " أنفاسه واستطاع أن يهمس :
ـ خدناها .. كسبنا العمودية .
وجرى الشيخ " محمود " بكل هيبته ووقاره كطفل رعديد إلى الطريق .. وصاح بآخر صوته ملوحاً بذراعيه :
ـ يا عبد الفتاح أفندي يا حسبو تعالى لما أبوسك خدنا العمودية ..
وفى وسط الشارع حضنه عبد الفتاح أفندى وقبله .. لففنا المدينة نهتف ونصرخ ونضحك من غير هدف .. وكان الظلام قد بدأ يدخل الشوارع الطويلة والفوانيس ترسل ضوءاً أصفر باهتاً .. وأصواتنا تكاد أن تبح، وتجمعنا وأستاجرنا ثلاث عربات نقل ..
كانت العربات تنهب الأرض مسرعة تتسابق .. والنسيم يلفح وجوهنا، وأصواتنا تزداد صخباً .. والكلمات تتشابك وتتداخل .. وأوقفنا العربات على الجسر .. أمام خرابة " " عطا " " وظللنا نردد فى هستريا : " يحيا العدل . يحيا العدل ، يعيش الشيخ محمد هيه .. هيه جبناها بالسيف " وأطفأت الأنوار وخرجت زوجته وبين يديها طشت كبير، سبتنا وأفرغته فى الترعة .. وضحكنا ...
لفظتنا العربات، انحدرنا نحو أرض " عطا " نتلف زراعته .. و أفواهنا تعبه مبحوحة تردد :
ـ يا محشوش حش البرسيم يا " عطا " من عيلة مين ؟ ..
ونجوب البلدة مرات .. ثم مضينا إلى الدوار وظللنا ساهرين نرقص ونتعانق فى سرور غامر طوال الليل .. وأكواب الشاى تدور علينا ولم نذق طعم النوم ..
فى الصباح هذا كل شيء واستكان ومن بعيد ينساب صوته " أمنه الجفالة " :
ـ الله ينصرك يا أبو هاشم .. ألف رأيه بيضة عليك .
وتتحسس المرأة طريقها ..ويقفز خاطر يلح على، حتما لن يسكت وقد يعود الأشرار ويزول كل شيء .. وأحملق بعينى، ثم أهز رأسى فى اقتناع وابتسم، ويتوارى كل ما تمور به أعماقى .. وأعود لنتحدث معا عما كان .

مجلة التحرير عدد مايو ١٩٥٦

الحـــــريق

ـ حريقه ...

.. وتوجعت الأبواب الخشبية متقحة، لتندفع من ورائها أجساد نحيلة تجرى ملهوفة تجاه الصوت الحاد المستغيث، تستعيذ بالله ، وتضرع إليه سبحانه أن يسترها، وتتساءل عن المسكين الذى حافت به الكارثة، لكن سرعان ما تتجمع صيحاتهم فى نداء يحث على الإسراع ، وتستجيب السوق فتوسع من انفراجها، وتلتقى الجموع أمام المنزل المحترق، ويزدحم الدرب بالعيون المتطلعة لحظات، ثم يلفظها لأعلى فتطفو فوق أسطح الدور تحيط بالنار، ولايتبقى بالدرب سوى عينان تبرقان متلصصتين فى ظل أحد الأركان، ترقب اللهب فى تلذذ وشماتة ثم تنحدران لأسفل فتجد أزرع الرجال ترتفع وتهبط بالعصى ساحقة الشرر المتطاير، بينما انفردت أكمام النسوة محتضنة الجرار، تفرغ ما بجوفها من مياه حول النار، فتضيق العينان حنقا، وتستحيل نظراتها مقتا رهيبا تنهشان به الأجساد المتقدمة فى أصرار لتحصد الحريق ، وتتماوج نسمة رطبة فتلسع العينين وتجعلهما تطرفان، وحينما ترتفع جفونهما تكشفان عن بريق كله تمن راحت تلاحق به النسمة المديرة لعلها تصبح ريحا تجتاح قدرة الرجال :

ـ ما هذا، ألم تراك واقفا هكذا ؟ ..

وتجزع العينان فتسرعان بالاختفاء، ثم لا تلبثان أن تطلا فى توجس يزيحه صوت أجش أنطلق من قرب :

ـ لقد ذهبت .. وأنا عائد لتوى من هناك بعدما وجدت شيخ الخفر لم يزل ينادى على المركز كى يرسل سيارات الاطفاء .

ـ حسناً ... رح ثانية لترى ما تم ولتتعجل إتمام الاتصال، إذ يبدو أن الريح موشكة على الهبوب .

.. وتتألق العينان بالرجاء حتى لتوشكا أن تنطلقا : يا ليت، ويحتج ذو الصوت الأجش :

ـ ولم لا تذهب أنت ؟ أتراك أعلى منزلة منى ، أم ترانى حمار سباخ فلا عمل لى إلا المشورة بينما أنتم تحاولون إطفاء الحريق ؟..

لوح الرجل الواقف على حافة السطح بذراعه وصاح فى قنوط :

ـ عنك ما رحت .. أتراها دارى ؟..

استدار مبتعداً، وبقى ذو الصوت الأجش واقفاً فى تردد انعكس قلقاً فوق صفحة العينين، لكن سرعان ما تحول القلق الى ارتياح لما تحرك ذو الصوت الأجش الى داخل الدار مهمهماً :

ـ وهل تراها دارى أنا ؟..

وهبت نسمة.. فأخرى أعنف من سابقتها، ثم تتابعت النسمات متصلة وبدأت النيران التى كانت آخذه فى الانكماش تنفرد مستعيدة قواها، ويستفسر صوت قلق :

ـ ما بال رجال الإطفاء لم يجيئوا يا أخوان ؟ .

لكن الصوت يضيع وسط فحيح النيران ، والانفجارات المكتومة أحياناً كالآهات المدوية أحياناً أخرى كالصراخ التى تطلقها كيزان الذرة المدفونة تحت حزم الحطب وحباتها تندفع لأعلى متوهجة لتتناثر هشيماً أسود فوق الجموع التى أزداد صخبها، وكثرت نداءتها وترتسم الراحة فوق العينين وهما تريان القلق الذى دب وسط صفوف المقاومة، فتخبطت حركتهم متضاربة بعضها يعوق بعض، وترتفع العينان مع أمتداد أعمدة اللهب التى استطالت تتماوج عملاقة .. رهيبة تكاد تطاول وجه السماء المكفرة بالسحب فتمتلئ العينان رهبة وتغضان الطرف متلاهيتين بالتحديق فى الزقاق الخالى .

ويعود الصوت القلق يلح :

ـ يا أخوان يجب أن يجيء رجال الأطفاء .

.. ولا من مجيب فالزقاق خاو والجميع منهمكون فى الصراخ وأصدار الاوامر، وتتقدم العينان الى الأمام قليلاً .. ثم تعودان ثانية للانزواء فى الظل وقد خبأ بريقهما وفاضتا بأنقباض قاتم :

- يا أخوان اننا أعجز من أن نقف أمام هذا الحريق، أنه يلتهم كل شيء فالنيران جذورها عميقة وقد تمتد لتحرق البلدة كلها .

وتجفل العينان ثم تمرقان خارج نطاق الظل تشقان الزقاق فى هلع فلا تتوقفان الا وقد ثبتتا فوق شيخ الخفر وقد جلس يشهق منهاراً فى بوق الهاتف :

- فى الطريق .. أنهم فى الطريق .. أذن سيحضرون .. أكد عليهم فالحريق كبير أنا أقول الحريق لا الفاعل .. فاعل ماذا ؟..نعم ...... نعم مجهول .. مجهول، فقط انقذوا البلد من الخراب .

ويعلق شيخ الخفر سماعة الهاتف ويزفر فأراد ظهره فيصطدم بصره بالجسد المنتظر وقد أطلت منه نظرات كلها لهفة وتساؤل فيزوم :

- هـ م ماذا تريد يا ولد يا صاحى ؟ .. المحروقه ؟. أنها فى الطريق ، كان المفروض أن تكون قد وصلت منذ زمن ، ولكنها ضلت الطريق وذهبت كالعادة الى قرية المراقبة ، وكأنه لا تكون حرائق فى الدنيا الا والمراقبة مصدرها، المصيبة أنهم يستفسرون فى قلق عن الفاعل لا عن الخسائر !!.

.. ويضرب شيخ الخفر كفاً بكف وهو يعجب للأمر :

- مصيبة والله مصيبة ؟

لكنه سرعان ما يتحول ليعجب من أمر الولد الحمار الذى جرى وتركه يحادث نفسه طوال تلك المدة ..

وقف الصاحى وسط الرجال يزف البشرى مؤكداً أن رجال الأطفاء سيصلون بعد لحظات، لكنهم لم يأبهوا به، فلقد راحوا يتراجعون فى أستسلام أمام وهج النيران المستعرة ، ويؤكد الصاحى :

- وكتاب الله لقد سمعت شيخ الخفر وهو يقول أنه سيسرع لينتظرهم عند مدخل البلدة .

ويصرخ صوت أمرا :

- أخلوا الأسطح المجاورة مما عليها من حطب، هذه الدار قد حكم عليها بالدمار وعلينا أن نؤمن الدور المجاورة من شرها .

وتفح أنفاس لاهثة فى وجه الصاخى :

- فقط لو نعرف الفاعل لمزقناه شر ممزق .

ويتوسل الصاحى :

- يا أخوان يجب أن نصمد.. حرام أن نترك الدار لتصير خرابا .. لحظات ويجيئون .

ويعوى صوت غاضب :

- بماذا يفيد مجيئهم وصنابير الأطفاء غير صالحة ؟ .

ويرد الصاحى فى رجاء :

- سيتصرفون أنه عملهم، وحتما سيجدون أكثر من حل، سيمدون الخراطيم للترعة، سيجيئون بفناطيس الماء .

.. والأجساد تتقهقر ... والصاحى كاد أن يصبح وحيداً فوق السطح الملتهب، فأندفع يختطف عصا من يد تتراجع، وتقدم ينهال بها فوق النار :

- يارجال يجب أن نصمد كل ما علينا أن نصمد ، تقدم يا أخ ساعد يا زميل هناك .

.. وهناك انهار رجل، رمقة الصاحى وأستدار لكنه لم يبرح مخيلته بقى يهمس معاتها :

- أهكذا تفعلها يا صاحى، امن اجل خلاف بينك وبين عبد الغفار تحرق رزقه ورزق عياله ثم هاك ستحرق البلدة كلها ؟ !!.

.. ومن خلال اللهب اطل وجه عبد الغفار حزينا يائسا تنطق ملامحه بالضياع، ومن حوله التف عياله يتعلقون بجلبابة ويصرخون فى رعب، وتشتد ضربات الصاحى فى خبل فيهتز بدنه المحموم، وتتناثر دموعه منسالة فوق وجهه فتغسل ما يلطخه من سواد : وسامحنى يا عبد الغفار سامحنى .. لقد أخطأت فى حقك، لقد كنت دائما احقد عليك وانا اساس الخطأ بالرغم من أنك ظهرت بمظهر المسىء ، فلقد تعوت ان اقسو على بقرتك بالضرب، فكنت اضربها فى اماكن تجعلها تسقط جنينها لأنى كنت غيرانا منها، لذا رحت انتظر الفرصة حتى اشفى نارى، فما ان شاهدتها تخطىء فتنثنى عن الطريق مندفعة الى زراعتى حتى كان ما كان ، مع انه كثيراً ما تخطىء دوابنا الطريق فنردها اليه دون ان نعاملها بمثل تلك القسوة ... لكن حقدى اعمانى فسامحنى ... يا عبد الغفار.

ويود عبد الغفار لو يسامحه، لكن وجوها كثيرة تبرز من وسط اللهب ملتفة حوله ، تكتم فمه محتجة فى غضب : لا تغفر له أحرقه كما حرقك، أحرقه ..

ويزداد حقدها ويتمدد : أحرقه .. احرقه .. احرقه، حتى ليشتعل كل شىء : احرقه، و يقترب وجه عبد الغفار من الصاحى وقد مسخه غل اسود تنفثه كل خليه من خلاياه فيحيط بالصاحى ثقيلا .. ثقيلا يكاد يخنق أنفاسه : احرقه.. احرقه

و تجذب الصاحى قوة جبارة فتخرجه من نطاق الحقد فيشهق لاهثا :

ـ لا .. لا دعنى .. دعنى لن أخاف، يجب ان يطفأ الحريق ... يجب .

وراح يجاهد حتى استطاع الإفلات من اليد التى جذبته بعيداً عن الجزء المتبقى من السطح، والذى ما لبث أن أنهار فحصر النيران أسفل بين الجدران، وأفاق الصاحى ليجد نفسه وقد تصلبت ساقاه وأنتصب جسده على حافة هاوية قدميك واعترفت لك بخطئى ، فأنا السبب فى الحريق وليس غيرى ،

وتعليل الصاحي فكاد جسده أن ينطرح ، لكنه استند الى السلم الذى يتوسط الدار فيصل بين الداخل والسطح ، وفرغت العينان وأسرع عبد الغفار يشق طريقه وسط الجموع واحتضن الصاحى فحال بينه والسقوط تم حمله واستدار خارجاً .

فى الخارج كانت السماء صافية والنجوم تتألق ، والسحب قد استحالت نتفا سرعان ما تبددت، بينما تلاشى الدخان المتصاعد من السطح تماما .

إلى طوب جدار أسند عبد الغفار جسد الصاحى وراح ينادى عليه ليفيق من إغماءه، بعد حين فتح الصاحى عينيه فالتقت بعينى عبد الغفار وتحركت شفاه أربع فى تناسق اخرج كلمات واحدة تطلب السماح .

ومن بعيد كان ينساب صوت اجراس عربات المطافئ فى رنين واهن قطعته زغرودة اطلقتها امرأة وتهليل فرح ارتفعت به عقيرة الرجال .

مجلة القصة عام ١٩٦٥

الرجال والمدفع

حينما دوت في الوجود أغنية الفداء ، بدأوا يتململون في وقفتهم فاحتضنتهم إلي صدرها الذي يمور بماء الحياة وانسدل شعرها الأخضر وقد تخللته شعيرات صفراء يحوطهم ، لكن أصداء الأغنية ارتفعت وعلت فارتخت يداها من حولهم وانطلقوا يحيطون بها وهي تحتويهم بعينيها ثم ناولتهم المدفع فتناوله الواهد من الأخر.

الرجل الأول

تصاعدت فقاعات الهواء فوق سطح البحر الساكن واندفعت الغواصة لأعلي . الهدوء يلف كل شيء عاصمة العدو غير بعيدة عن مرمي المدافع .

هناك .. علي الشط تحركات .. أشباح تروح وتجئ وسط الظلام .

فجأة تساقطت الأشباح .. تبدد الهدوء .. ولي الصمت فتحت الغواصة نيرانها.

وكان هو اقفا بمدفعه فوق سطح الغواصة يرقب اقتراب أي غريب.

كفت الغواصة عن إطلاق النيران، بدأت الأوامر تصدر إليهم:

- انتهت المهمة.. ليعد الجميع إلى الداخل.. الاستعداد للغوص.

تدافع المقاتلون إلى الداخل من خلال الفوهة الضيقة، ولكنه توقف فجأة وتخلى عن مكانه وتقهقر ليكون في نهاية الصف.

كان قد سمع دوى محرك طائرة وأيقن بالخطر المحدق: مع الغوص تنطلق الصواريخ من الطائرة فتغرق الغواصة.

لن يتمكنوا من هذا.

ضغط على نواجزه... ووقف وقد فتح ما بين ساقيه والمدفع في يده مصوب لأعلى.

حومت الطائرة رصدت الهدف، تأكدت منه ثم ابتعدت لنقوم بدورتها.

صرخ صوت من داخل الفوهة :

- عد إلى الداخل

لكنه لم يستجيب وبدأ العد:

- واحد.. اثنين.. ثلاث أ..ر..

ولم يعد يسمع شيئا سوى ارتطام غطاء الفوهة وانطلق مدفعة الرشاش يواجه الطائرة المقتربة مئات الطلقات تدافعت وسمع صرخة بددها انفجار الطائرة ثم سكن كل شيء إلا من الفقاعات التي تبعثها الغواصة مع هبوطها لأعماق البحر بعيدا عن الخطر.

حينما وصل الماء يغطى ساقيه امسك بسور الغواصة ورفع مدفعه لأعلى فمدت يدها تحتضنه إلى صدرها، وعلى الصدر كانت تنتظره نفيسة بجلبابها

المزركش وقد مدت يدها فتناولها وانطلقا معا زوجا وزوجة.

الرجل الثاني

المطار ساكن الصباح بعد لم يتفتح كلمات الرسالة التي يعث بها إلى أولاده الخمسة لم تزل حاضرة في ذهنه، هناك بشائر سلام ولكن هل يعترف مصاصو الدماء بالسلام وعيناه شاردتان تعيشان وجه ولده خالد، واللحظة الأخيرة وهو يتعلق برقبته معانقا ومودعا:

- بابا.. أريد إن أكون بطلا مثلك.

أه يا صغيري الحبيب، من إدراك إن بابا سيكون بطلا قد أجبن ساعة القتال؟

التقطت أذناه صوت أزيز بعيد أدرك بخبرته انه لمجموعة من الطائرات.

لكن طائرتنا على الأرض وليست هناك إيه طائرات غريبة، ولكن هنالك سلام.

تسلل في صمت إلى الخارج كل شيء هادى النوم يلف المطار والأرض، شجرة الزيتون تتحرك أغصانها ببطء وصوت الطائرات يقترب... يرتفع، بلا شعور اتجه إلى أقرب مدفع جلس إليه وأعصابه مشدودة.

- بابا.. أريد إن أكون بطلا مثلك.

وهى تنتظره، دفء الاحتضان لم يزل حرك دماءه.. يراها تحتض أبناءه والطائرات بدأت تدفع بالهواء فيثير شعر رأسها.

انفتحت فوهة المدفع استحالت السماء جحيما وتساقطت القنابل من السماء

وتفجرت الأرض وهوت طائرة ولحقتها ثانية وثالثة جن جنوبهم اقتربت منه ست طائرات على مرمى اليد اقتربت منه واندفعت طاقات حقدها.. طيرت ساقه لاحقت نظراته الساق الطائرة للحظة ثم سكنت فوق عيون زملائه التي تغلفها ظلال نوم وشفقة حاولوا إن يحملوا بعيدا عن المدفع صرخ فيهم:

- دعوني فهذا مكاني ومكانكم أيضا.. هيا خذوا أماكنكم.

جروا إلى مدافعهم واستمر هو يطلق نيران مدفعه لمسته يد، التفت:

طبيب شاب ومعه ممرضتان، أشار إلى ساقه،أومأ إلى الأرض ليتمدد عليها، لكنه أشاح بوجهة.

- لن أتخلى عن مكاني، افعلوا ما بدا لكم وأنا في مكاني.

ينبوع الدم يتدفق من الاورطة والشرايين الإبر تنغرس في لحمه وهو يلاحق الطائرات بطلقات محمومة، الكلمات مطموسة..

- لا جدوى.. النزيف لا يريد إن يتوقف.

قال لنفسه: عن أي شيء يتكلمون.. ليقولوا ما بدالهم قوله. لكنى سأهديك الطائرة الخامسة يا خالد .. هي لك.

وسقطت الطائرة مشتعلة، وأنهار هو فوق المدفع بدون نقطة دم واحدة، ومن السماء تهاوى على جسده فرع محترق طار من شجرة الزيتون.

*** الرجل الثالث***

لا يدرى كيف وجد نفسه أسيرا وسط المئات وحولهم سور شائك.

كان مدفعه ينطلق وكانوا يتساقطون كانت ماسورة المدفع تلتهب. فكر كثيرا في مدفع أخر أقوى واشد.. كليته درس نظريات وعمليات خلط ودلو يطورها ليخلق منها مادة جديدة تستطيع إن تدمر أعداء السلام، دون إن يستطيعوا تدميرها

المعسكر ضيق بالنسبة لمئات المكدسين به، لكن الشمس الحارقة لم تك تدع

فرصة لأحد إن يفكر في مثل هذه الأشياء كانوا جميعهم وقوا وكان هناك تحت رجليه طفل يبكى بقوة وباختناق مد يديه: رفعة لفوق واحتضنته إلى صدره سكت الصغير عجوز كان ى برطم في ضيق قالت العجوز له مجاورة تنهره.

- لن يسألوا فينا يا رجل أتظنهم مثلنا، لن يدقموا لنا شيئا لا دواء ولا ماء ولا طعام فدع عنك الوهم.

سكت العجوز عن همهاته الملحة ثم تهاوى ساقطا في يأس تحت الأرجل وودعته العجوز بنظرة جامدة.

ذهبت الشمس، تركت لهم لزوجة تجعل ملابسهم ملتصقة بأجسادهم والطفل جائع كلمته الوحيدة: مم.. !! والعجوز وسط الظلام تهتز بعنف وترقب !

- ارحمنا أيها الرب..

وانطلقت خيوط حمراء تومض وسط الظلمة تجاههم، وارتخت يدا الطفل فجأة من حول رقبته وارتمى الجسد إلى الخلف في حركة مباغتة جعلته يسقط رغم محاولته اليائسة في أن يحول بينه والسقوط، لكنه سقط... سقط هو أيضا معه وسط الأنات والدماء اللزجة التي غطت صدره وتذكر كيف مال على أمه فكاد يقع وهو يقسم لها انه سيحول كل شعره صفراء في رأسها إلى خضرة وهى تبتسم له فيقوى عودة ويقف فتقبل عربات سوداء كئيبة لتحمل الجرحى ولكنهم لم يذهبوا بهم إلى المستشفى تركوهم وسط الصحراء ثم فتحوا نيران مدافعهم. وجرى... وجرى .... واكتشف وهو يجرى انه ليس جريحا وأصبحت طلقاتهم اعجز من أن تنال منه:

- أه يا أمي.

وارتمى فوق صدرها يلهث وهى تحتضنه بقوة ولحظت عيناه أن شعيرات صفراء جديدة نبتت بين الخضرة فاقسم من أعماقه أن يغير لونها.

*** الرجل الرابع***

تنهد بارتياح وهو يفرد جسمه في المقعد الصغير، وكأنما يريد أن يشعر بكل ذرة من كيانه بذرات المقعد ومد يديه يربط الحزام حول جسده وتنهد:

- أخيرا عدت إلى طائرتك.

وانطلقت الأوامر تقول: طابور من مدفعيه العدو يتقدم لتعزيز قواته المعتدية علينا أن نبيده.

كان يشعر بأن الكلام موجه له بالذات لذا حلقت طائراته في ثواني ومرقت كالسهم تسبق كل الطائرات.

تحته بدت الخضرة، والبيوت، ثم خط المياه وقد بداء رفيعا ممطوطا فالشريط العريض الأصفر الشعرات الصفراء وسط الخضرة على صدرها كانت تتحرك جرارات تسحب وراءها مدافع ضخمة.

قالت زوجته:

- أخى قال: لو كانت فوق رؤوسهم طـائرة واحد لـدمرت كل مدافعهم وأشباحهم
بكى لحظتها.. بكى بقوة وهوان من يجد نفسه مغلولا:

- ولكن سأقوم بكل ما لم تقوموا به.

واندفعت الطائرة كالصاعقة، ويده فوق الزر. المدفع ينطلق بثقة فتتحطم كتل الصلب وتشتعل فيه النيران.

وارتفعت طائرته ثانية في شموخ، ومدفها لم يزل ينفث الدخان والرجل تتحرك عيناه في وعى لتحيط بكل شيء حوله، وحوله كانت طائرات زملائه قد لحقته محلقة حوله ومدافعها متحفزة في تحية اعتزاز.

ولما شهدتهم أضاء الأمل وجهها واستعادتهم إلى صدرها فناولها المدفع الجديد ومد يده يسمح على شعرها، فمدت يدها بالمدفع إلى الأطفال الخمسة ونفسيه،، فتتناوله الواحد من الأخر وأغنية الفداء تتردد قوية واثقة.

مجلة الاجتماعى ـ يونيو ١٩٦٧

المنزل رقم ٩ بالشارع الخامس

١ـ الغريب :

- أرجوك .. أستأذن من العمل وأحضر فى الحادية عشرة اليوم أو غداً .. فقط ليكن حضورك صباحاً . سأنتظرك . عنواني شقة ٢٨ ، الدور الثاني من المبني رقم ٩ ، الشارع الخامس .. سأكرر العنوان ، لك أن تكتبه ..

.. راحت تعيد إملاء العنوان ببطء . صوتها ينساب الى أذنيه رقيقاً فيجعلهما فى لون الدم، لم يتكلم . كانت عيناه تختلسان النظر الى زميله الذى يحملق فيه . وكأنه يود أن يقرأ على وجهه ما تلتقطه أذنه المختفية وراء سماعة التليفون من كلمات :

- لماذا لا تتكلم ؟ ..

.. زاد ارتباكه، نقل السماعة من أذن لأذن ، ود لو يرد عليها، يعتذر، يسأل عن سر الدعوة، يقول : نعم .. لا .. حاضر .. سأحضر .. لن أحضر ..

.. لكن عينا زميله تشل لسانه :

- قل لها أى شيء . هل أصبت بالبكم ؟ .

قبل أن ينفذ نصيحة زميله قالت له :

- سأعتبرك موافقاً .. إلى اللقاء .

.. وضع سماعة التليفون فى صمت، تحرك الى مكتبه، جلس، جذب الدرج، اخرج ورقة، وضع يده فى جيبه، أخرج قلماً، خط على الورقة كلمات اعتذار لعدم تمكنه من الاستمرار فى العمل، قام، ناول الورقة لزميله واعطاة ظهره، نظر إلى ساعته : أنها العاشرة والنصف.

.. اتجه إلى الباب ونظرات الحسد تلاحقه !!

* *

: ترى ..ما الذى ذكرها به ؟ ..

: لعلها لم تتزوج وتود أن تعيد ما كان بينهما من حب ؟ ..

: لعلها أيضا تزوجت مثله ، لكنها مثله أيضا تعيسة فى زواجها : وماذا يجلب الزواج غير المشكلات وتعب القلب ؟

: ليت أيامك تعود يا جمالات بضميرك الحى، ونفسك التى لا تعرف الهم والغم والنكد .

**

.. لم يستطيع الاهتداء إلى العنوان بسهولة، كان ذهنه شاردا يعيش لحظات الحب القديم .

.. سأل ...

.. ضل الطريق ...

.. أخيرا .. وبعد دقائق ضاعت يعرف كم هى ثمينة، وجد نفسه أمام المبنى رقم٦ بالشارع الخامس، اندفع سريعا الى الداخل، كاد يصطدم بالبواب ، سألة حانقا :

- الى أين يا سيد ؟ ..

- شقة ١٨ .

.. واصل قفزة على درجات السلم . قلبه يرقص فى فرحة :

الدور الأول ..

الدور الثانى ..

وقف بلهث . عيناه تمسح أرقام الشقق ٢٧ ــ ٢٩ ــ ٣١ ــ ٢٨ ــ ٣٠ ــ ٢٨ .

للمرة الثالثة تواجه عيناه رقم ٢٨ وتستقر علية ، وتوقف كل شيء : قلبه خيالة وعقلة .

: ماذا سيقول لها ؟

: كيف سيتصرف ؟

: ما الذى يخبئه الباب المغلق ؟

نظر الى ساعته : أنها الحادية عشرة وتسع دقائق .
لقد حضر ولا مناص .
مد زراعه . فرد أصبعه . تلمس الحائط . ضغط الزر . أضاء نور السلم، فوجىء، انتفض، تسارع وجيب قلبه، بحث بعينيه عن زر الجرس، وجده، ضغطه برفق وهو يود لو يكون الجرس تالفا فلا يجيبه أحد .
سمع وقع خطوات رقيقة . فتح الباب . طالعة وجه جميل ، محال أن يكون لها ..فتاة صغيرة، ارتبك :
ـ المعذرة
: آه.. الشغالة .
تماسك، تساءل :
ـ السيدة جمالات موجودة ؟ ..
ـ .....
ـ أنا احمد الزينى .
ـ تفضل .. السيدة تنتظرك فى الصالون .
انسل من فتحة الباب . ثم وقف يتطلع حواليه منتظرا أن تقوده الفتاة إلى الداخل، شقة رائعة، الأثاث جديد .. فخم، للأبد أن زوجها ثرى : طول عمرك تعرفين طريقك يا جمالات . أهدافك محددة منذ زمالة الجامعة، الوجاهة والثراء ،ثم يجىء الحب، أو حتى لا يجىء .
ـ تفضل واتبعنى .
.. لملم نظراته المبعثرة ، وسار وراء الفتاة فى صمت .

* *

جمالات .. هى .. كما هى . أنيقة . جذابة . بل جاذبيتها أشد، فقد أصبحت مكتنزة . الامتلاء فى مكانه الصحيح بالجسم .كانت عيناه تأكلها باشتهاء واضح . ود لو تنهض . ليفتح لها ذراعيه
: آه يا جمالات . ما أحمقنى حينما هربت من زواجك .
ـ أهلاً يا أحمد .
مدت له أطراف أصابعها . لمسها محيياً . أشارت له ليجلس على مقعد مواجه : لابد من التدلل يا جمالات . لكنى سأجلس بجانبك . فلشد ما أنا محتاج لأن تكونى بجانبى .
جلس على المقعد المجاور . استدارت تواجهه مبتسمة :
ـ لقد أثر فيك الزمن كثيراً يا أحمد . تبدو أكبر من سنك . لو لم تكن زميلى لقلت رجل فى الخمسين . أتراك تزوجت ؟ أنا شخصياً تزوجت . لى زوج أحبه لأنى أجد فى كنفه الاطمئنان، المرأة دائماً تبحث عن الرجل الذى يشعرها بأنها فى مأمن حتى من نفسها . هه .. لعلك تتساءل : ما الذى ذكرنى بك . أتذكر يوم جلسنا فى الكازينو . طلبت منك أن ترينى صورة المرأة التى أنجبت من أحببت ؟ .. لقد أحضرت لى فى اليوم التالى صورتها . قلت أنها الصورة الوحيدة التى تملكها أسرتك . منذ شهور تقريباً قرأت فى الجريدة نعيها . البقية فى حياتك . تذكرت كل شىء تذكرت أيضاً أن صورتها ضمن أوراقى . قررت أن أعيدها إليك . قد تتساءل ولماذا لم أرسلها بالبريد ؟ .. لعلى خفت عليها من الضياع . ولعلى أيضاً أردت أن أريك تلك التى هربت منها كيف تعيش ، وكم هى سعيدة و..
.. ولم يعد أحمد الزينى يعى شيئاً . شفاه تتحرك . كلمات تتداخل . تفصد العرق من جبينه :
ذكريات ..
حاضر ..
مستقبل ..
نهضت جمالات . ناولته مظروف . طلبت منه أن ينسى كل ما كان !!

لم ينتظر . ولم يقل كلمة وداع فر إلى الباب . تلمس طريق السلم . تعثر فوق الدرجات لتلتقطه في مدخل المبنى عيناً البواب .

٢ – البـواب

: أنا أعرف هذا الصنف الحقير من الرجال . صنف متأنق . معطر . ناعم الحديث . ولكن لن تكون الساكنة رقم ١٨ على علاقة غير شريفة بأحد . فأنه لأمر يدعو للدهشة والغرابة !!..

: لا .. مستحيل أن تكون رقم ١٨ من هذا الصنف الوضيع .. لكن لماذا أستبعد الأمر ؟..

: ألأنها جميلة ؟..

: ألآن زوجها شاب مهذب جذاب ؟..

: .. وهل ينم المظهر دائماً عن الأعماق ؟.

: إذا كان الأمر كذلك لعدت الساكنة رقم ٤٣ من الملائكة ، ولكن الأيام أزاحت الستار عن الحقيقة التى أذهلتنى وأذهلت كل من عرف رقم ٤٣ السيدة الطيبة التى لا تفتح باب شقتها لقريب أو جار ، ولا يسمع لها أو لأخيها صوت، ومن كان يصدق أو يخطر له ببال أن ٤٣ ليست أختاً لذلك الأفندى الذى حضر مع العفش ، وظل مقيماً معها ، يعاملها باحترام ، ويناديها بأختى ، وتناديه بأخى . وأسميه أنا : أخو الست !

.. إلى أن كانت إرادة الله . وأنكشف المستور .

***

الحكاية فى مخيلتى وكأنها حدثت الآن .

كنت جالساً أمام باب العمارة فى الشمس، وقد داعب الكرى جفونى بعد أن مللت مراقبة المارة ومضاحكة الباعة الجائلين، من فوق الرصيف المقابل أتجه نحوى رجل مهيب الطلعة يحمل فى يده حقيبة سفر كبيرة :

- صباح الخير .. هل تسكن هنا السيدة ...

: لن اذكر اسمها . أن الله حليم ستار . قاومت الدفء . طردت النوم الذى أثقل جفونى وأخبرته بأنها تسكن رقم ٤٣ مع أخيها .

: يشهد الله أن لون الرجل أصبح فى صفرة الليمونة . حسبته مريضاً . اعتدلت، أفسحت له مكاناً بجانبى كى يجلس . لكنه سأل :

- هل يقيم شقيق السيدة معها ؟ ..

.. وأشار بإصبعه لأعلى العمارة . فهمت . قلت :

- أنه فى عمله الآن . و٤٣ أيضاً فى عملها . سيعودان فى تمام الثالثة .

استدار . وسار مبتعداً . جعلتنى كلماته أتساءل : حقاً .. هل أخو ٤٣أخ شقيق، أم أخ غير شقيق ؟!..

***

حضرت ٤٣ فى موعدها .أخبرتها بأن رجلاً سأل عنها . انزعجت . طلبت منى أن أصفه، شعرت أنى تسرعت . فأنا لا أتعامل مع ٤٣ إطلاقاً . هى سيدة شحيحة تدفع أجرى عن الحراسة بعد مماطلة حتى تمنيت من الله أن تحدث معجزة وتطير الشقة ٤٣ بصاحبتها وأخيها بعيداً عن العمارة كلها، قررت أن أخدعها، تضاحكت .أردت أن أنكر ما قلت مدعياً أن ما كان مجرد مزحة . ولكنى أخذت جانب الحيطة فقد يعود الرجل . أخبرتها بأن الرجل يرتدى ملابس مثل سعاة البنوك .

أنزاح الانزعاج عن وجهها . شكرتنى . فتحت حقيبة يدها . توقعت أن تخرج منديلاً لتمخط ، ولكنها – ووسط ذهولى – أخرجت ورقة مالية دستها فى يدى . و انصرفت وهى ترجونى أن أخبرها دائماً بكل ما يدور حولها .

***

فى المساء . عاد الرجل المهيب . سألنى هل ٤٣ وشقيقها بأعلى : حقاً لقد نسيت أن أسأل ٤٣ عن أخيها هل هو شقيق أم غير شقيق ؟

هززت رأسى . أشرت مثله لأعلى :
- نعم .. هما هناك الآن .
فقد الرجل وقاره . جرى الى السلم . راح يقفز الدرجات مثنى وثلاث .
قلت :
- الاسانسير .
.. لم يأبه . قفزت أعدو وراءه . كدت ألحق به ، ولكن الباب رقم ٤٣ حال بيننا . وقفت الهث . ضاع صوت لهاثى فى زحمة الصراخ الذى تصاعد من وراء الباب الذى سرعان ما فتح وأندفع منه أخو ٤٣ يعدو حتى كاد يكتسحنى فى طريق تلمسه لدرجات السلم . ولم يتوقف – وأنا ألاحقه – الا وهو داخل تاكسى يواصل العدو بدلاً منه .
أسرعت عائداً الى الشقة . اكتشفت أنى صعدت السلم قفزاً . نسيت الاسانسير . وجدت ٤٣ تبكى وتنوح أمام الباب مطالبة بملابسها، وسرعان ما اندفعت من فتحه الباب لفافة ضخمة صدمت ٤٣ فأوقعتها، وقد يكون يمين الطلاق الذى أطلقه الرجل بصوت جهورى، هو سبب سقوطها على الأرض ؟!..
ساعدت ٤٣ على الوقوف . حملت عنها اللفافة الضخمة . أركبتها تاكسى . تركتها وعدت الى الدكة مندهشاً أضرب كفا بكف .

***

شيئاً فشيئاً أدركت أن الرجل المهيب هو زوج ٤٣ ، وأن ٤٣ ليس لها أخوة أشقاء، أو غير أشقاء !!

***

.. أو تلك الساكنة رقم ١ . لقد كادت تضيعنى معها . كانت تدعى أنها تعمل خياطة . ثم إذ بسيارات الشرطة تحيط بالعمارة ويقفز منها رجال يقتحمون الشقة ، ويخرجوا من داخلها نساء ورجالاً ليس على أجسادهم ما يسترها

***

.. ثم .. ها هى ١٨ تريد أن تثير الزوابع من جديد .
: ١٨ ، هل يصدق بشر أن هذى العروس الجميلة، وتكاد تذوب حبا وهى ممسكة بيد زوجها تـ .. تـ .. استغفر الله .. استغفر الله العظيم .
- يا حليم يا ستار ..

***

يا سادة .. أنا لم أعد أحتمل أن أتكتم ما حدث، فأن لا أبوح به للسكان فإنه أمر محتمل ، ولكن أن أترك هذا الشاب الجميل يطعن من الخلف . فهو ما لا يحتمل :
: هو رجل ، وأنا رجل ..
: هو زوج ، وأنا زوج ..
: وقد علمت ، ولابد وأن أخبره ..
: يجب أن يعرف زوج رقم ١٨ كل ما أعرفه .

٣ – الـــزوج

: أذا كل ما كان خداعاً، كلمات الحب ، لحظات الهناء ، اتحادنا حتى الأصهار ، هل يعقل أن يكون كل هذا خداعاً ؟ ..
: ليقتلها ، وليحكموا عليه بالموت ، هو يحبها . بل يكرهها ، أذن لماذا يموت من أجلها ؟..
: ليطلقها .. الطلاق هو الحل .
: وتلك الأيام الجميلة :

: آه منك مخادعة . هل أجبرتك على شيء .
: أو لم تختاره هى رغم معارضة أهلها ، وتبرؤهم منها ؟ ..
: أذا لماذا تطعنه من وراء ظهره ؟..
: لو سألتينى الطلاق لطلقتك .
.. سالت دموعه . ظل يتقلب تحت الغطاء كالمحموم . لا تغمض له عين ولا يطاوعه لسانه على مخاطبتها .
: أكرهك .. أكرهك يا دنسه .
ليقتلها ويهرب بجلده .لقد شاهد فى أحد الأفلام زوجاً يفعل هذا . خانته زوجته وقرر الانتقام منها، أحضر زجاجة سم . راح يجرعها السم ببطء يوما بعد يوم، ورشفة وراء رشفة، ومعه يجرعها خداع الحب . فى النهاية مل طول الزمن ولزوجة الجسد الخائن ، وضع لها جرعة سم كبيرة . قتلها .
- أيها السيد .. لقد قتلت زوجتك ، والدليل فى يدى .
.. سار منهاراً مع رجل البوليس . فى غرفة الغاز كانت نهايته ، فلم يكن لديه دليل على خيانة زوجته .
بكت ليلتها ، قالت :
- حرام أن يموت الزوج . كان بإمكانه أن يلفظها .
.. تنهد متهكماً :
: يتركها لتنعم بعشيقها .
لقد اخطأ الزوج . فلقد كان يشترى السم من صيدلية واحدة .شك الصيدلى . ابلغ الشرطة .
: لن افعل هذا . لن أقع فى الخطأ .
: ولكن لماذا يسلم بصحة ما قاله البواب ؟ ..
: وما مصلحة البواب فى أن يدعى عليها كذبا ؟ ..
: وما الذى يمنعه من الادعاء ، لعل هنالك سبب ، لعل هنالك خلاف ، من يدرك ؟
- راقبها آذن .

* *

فى الصباح .. نهض من الفراش . تسلل خارجا بلا كلمة وداع . كانت لا تزال نائمة . بعد ما تدحرجت خطواته على السلم، عاد من جديد، قبل جبينها مودعا، يجب ألا يشعرها بشىء ، علية أن يلقمها طعم الأمان .

* *

لم يستطيع أن يستمر فى عملة . خرج إلى الشارع . علية أن يذهب لمراقبتها . ليبصر الدليل بعينى رآسة . لقد مرت ساعة منذ غادرة البيت . هى الآن تشعر بالأمان . لابد وأنة هناك :
- الكلبة .
أسرع يشير إلى التاكسي ...

* *

بعيدا عن المنزل رقم ٩ نزل .. حجرة النوم مغلقة . أتراها معه فى السرير . أم هو جالس على حافة الفراش وقد ارتدى منامته ، وراحت هى رأسها فوق فخذه كما تفعل معه .
- الحقيرة .. الحقيرة ..
انحنى .. التقط حجرا من فوق الطور . بكل قوته قذف به النافذة المغلقة ، وفر هاربا .

* *

عاد إلى عملة اخذ يكتب إلى زوجته رسالة . أفاض فيها بكل حقده . ذكرها بالفيلم . قال أنه ينزل على رغبتها ويطلقها . رجاها أن تترك المنزل حتى لا تدفعه لارتكاب جريمة قتل . ثنى الرسالة . وضعها فى المظروف . مرر لسانة على الصمغ . شعر بمرارة غريبة فى فمه . ابتلعها عامدا . اغلق المظروف . ناوله للساعى ليوصله إلى زوجته .

.. صعد الدرجات مترددا رغم حلمه بأن يصل إلى الفراش ليرتمى فوقه وينام، فلقد قضى يومه خارج البيت جتى يعطيها فرصة الرحيل، كان قلبه منقبض . حزن عجيب يعتصر كيانه . رغم أنه أصر على أن يشاهد فى السينما فيلما ضاحكا . فتح الباب . البيت صامت . مظلم . رائحة غريبة تنبعث من المطبخ . أضاء كل المصابيح . تقدم فى اتجاه الرائحة . أنبوبة الغاز مفتوحة . أسرع يفتح النوافذ .

: الخائنة تريد أن تحرق المنزل . ليتها أحرقته .

اتجه ثانية إلى المطبخ . أمام الباب ورقة معلقة فى المفتاح . التقطها، قرأ كلماتها فى لهفة :

" لقد بعت الدنيا لا أشتريك . فإذا كنت تطردنى من حياتك، فانك تطردنى من الدنيا كلها. ملاذى إذا هو الآخرة. وداعا .. وليغفر الله ظلمك لى "

.. دارت به الأرض . لا يفهم شيئا. يعيد قرائه الكلمات . يده تلتقط المفتاح . لا تستطيع أن تستدل على مكان القفل

: لكنها لم تدافع عن نفسها لم تشر لبراءتها بكلمة واحدة

: ورغم كل شيء هى لاتتساهل الموت . قد أكون أنا الذى دفعتها لذلك . أكيد هناك خطأ حدث .

- احفظها يا رب .

فتح الباب . الزوجة ممددة فوق ارض المطبخ ، ارتمى على جثتها يتحسس نبضها وقلبه يكاد يتوقف، حملها بين يديه :

- لقد قتلتك يا حبيبتى ، فإلى أين كنت ستذهبين . إلى أين ؟ .

تعثرت خطواته فوق دراجات السلم . يسقط رجلا ليتبعها بالأخرى :

- أيها الضابط اقبض على ، لقد قتلت زوجتى بالغاز .

في المدخل وقف ساكن الشقة رقم ٢٨ يلوح في وجه البواب ، والبواب يحتج بأنة لا يعلم، وقد سدا عليه الطريق .

التقت عيناه بعينا البواب، أسرع إليه معتذرا بأنه قد أخطأ رقم الشقة التى زارها الغريب .

مجلة زينة يونية ١٩٨٨

انتظـــار

عقارب الساعة تتحرك فى بطء٠٠
دقائق وتصل ؛بل لعل الجرس يرن الآن وأفتح الباب فأجدها لم تطق صبرا
فحضرت كعادتها قبل ميعادها
٠٠٠٠٠
٠٠٠
٠٠
عقرب الدقائق يستقر فوق الثانية عشرة ٠
٠٠
دقات الساعة ترن رتيبة وسط الفراغ ٠٠
إنها الحادية عشر صباحا :موعدها ٠٠ هى حتما تغادر الأتوبيس الآن وتتجه
إلى الباب وذهنها مشغول بالبحث عن ألف اعتذار لتسترضينى ؛ ولكنى لن أدع
الأمر
يمر ببساطة٠
إننى لست ألعوبة تلهو بها كيفما تشاء ،على أن ألقنها درسا قاسيا،فمن
تكون هذه الحشرة الحقيرة حتى تتأخر دقيقتين عن موعدها ؟
سأضربها ٠٠٠
سأجعلها تمرغ رأسها فوق ساقى ٠٠ بل سألقاها ببرود ٠٠ سأفتح الباب
وأسالها :
من تريدين يا سيدتى ؟
أريدك أنت طبعا ٠٠
أسف يا سيداتى ،لقد أخطأت العنوان بثلاث دقائق
وفى صمت وهدوء ٠٠ وباحتقار : أغلق الباب وعلى شفتى ابتسامة هادئة٠٠
٠٠٠
٠٠٠
٠٠
عقارب الساعة تتحرك ٠
٠٠٠
خمس دقائق مضت ٠٠
هى المواصلات ٠٠
إنها مزدحمة دائما على الناس أن ينتظروا ٠٠ وينتظروا ٠٠ وهى لا تستطيع أن
تقطع المسافة مشيا قد يكون هناك من يراقبها ٠٠
ألا لعنة الله على المواصلات ٠٠٠
٠٠٠٠٠
٠٠٠
٠٠

عقارب الساعة تمضى فى إصرار ٠٠٠
٠٠٠
إنها الحادية عشرة وعشر دقائق ٠٠
ليست حجة مواصلات ،بإمكانها أن تستعمل التاكسى إذا ما وجدت أن
الأتوبيس سيجعلها تتأخر عن موعدها ،
نعم :من أدرانى إنها ليست كذلك؟
٠٠٠ ولكن مع٠٠ من ؟٠٠٠ وأين ؟
يالها من انسانة تافهة حقيرة فاجرة ٠٠ بل أن التافه الحقير الفاجر ٠ فأنا الذى
دفعتها إلى ذلك دفعا ، وكان من المحتم ألا تحتمل وتفر منى ، فلقد كنت دائما
جافا فى معاملتها ،وكان يخيل لى أنى أله عليها أن تقدم إلى القرابين ٠٠
٠٠٠ ولكن هاهى ذى تملنى ٠٠ تمل البذل بلا مقابل ٠
وها أنا ذا جالس كالصنم انتظر مجيئها ولا أتحرك ، بالرغم من كونى أريدها
بكل جوارحى ولكن ٠٠ هل من السهل عليها أن تدعنى هكذا ؟٠٠
أهكذا تهون العشرة ؟٠٠٠
لا٠٠ أبدا ٠٠ أبدا ٠٠
لا أعتقد أن ما بيننا ينتهى بمثل هذه البساطة ، بل يجب ألا ينتهى ، يجب
أؤمن مستقبلى من تراجعها ، على أن اقترن بها إلا أدعها تفلت منى ، فقط لو تجئْ٠
٠٠٠٠
٠٠٠
٠٠
عقارب الساعة تتحرك ٠٠ تدور ٠٠٠
الدقائق تضيع ٠٠ تذهب ٠٠ ثمان وعشرون دقيقة
٠٠٠
ترى أين أنت الآن ٠٠
أه لو صدقت مخاوفى وذهبت إلى أخر ٠٠
أننى لا أتصور أن يحدث هذا ، بل ٠٠ لا أستطيع تصوره ٠٠ لا أحتمل فكرة أن
تفلتى من بين يدى بعدما وجدتك ٠
حقا أعترف بأنى كنت فظا فى معاملتك وها أنا أعترف وأتحول لإنسان جديد
فقط٠٠ لو تجيئين ٠٠
٠٠٠٠٠
٠٠٠
٠٠
عقارب الساعة تجرى ٠٠
٠٠٠
انها الثانية عشرة إلا ثلثا
يا إلهى كيف غابت عنى الحقيقة طوال تلك المدة ٠٠ فلم تعود ؟٠٠٠ولمن
تعود؟٠٠٠

أتعود لى أنا الجاف كعود الحطب ٠٠؟
حتما ستار الحب انزاح عن عينيها ، فاكتشفت أنى أتفه من أن تتعلق بى ٠٠
أننى أتذكر ٠٠٠
أذكر واحدة قبلها قالتها لى ببساطة مزقت أعماقى حينما عرضت عليها قلبى :
- من تكون فى دنيا الرجال يا ذا الأنف الكبير ؟
٠٠٠أنفى كبير ٠٠كبير كبالون يشبه القلة ، وليس فى ما يجذب المرأة ،حتى لقد تساءلت مرارا ما الذى يجعلها تتعلق بى هكذا إلى حد الهيام ٠٠؟
٠٠٠ لقد كانت فرصتى واضعتها بحمقى : أضعت عمرى :
جرس الباب يرن ٠٠
يا إلهى ٠٠ لعلها هى ٠٠٠٠٠
لو يكون هذا الرنين من ضغطة إصبعها الرقيق ٠
سأمرغ وجهى فوق قدميها ٠٠
سأتوسل إليها أن تغفر لى جناياتى السابقة ٠٠
فقط ٠٠ لو تكون هى ٠
٠٠٠٠٠٠٠٠٠
٠٠٠٠٠٠
٠٠٠
عقارب الساعة تتلكأ ٠٠٠
٠٠٠
إنها الثانية عشرة إلا عشر دقائق ٠٠٠
الباب يفتح ٠٠
وأخيرا ٠٠أنت
تعالى٠٠٠
أدخلى ٠٠٠٠
أدخلى أيتها المحبوبة ٠٠٠٠
يا اله العالمين ، لكم أنا سعيد وأنا أضمك إلى ٠٠٠ لكم أنا نشوان بامتلاكك بين ذراعى ٠٠٠ أنت لى ٠٠ لى وحدى ٠٠٠
إيه٠٠ لكم أحبك ٠٠ أحبك٠٠
٠٠٠٠
٠٠٠
٠٠
عقرب الثوانى يمر على عقرب الدقائق فى لمسات الدقائق فى لمسات سريعة نشوى
عقرب الدقائق كاد يقترب من الثانية عشرة ٠
والآن حدثينى ٠٠ أين كنت طوال هذه المدة ؟
ردى على ٠٠ أين كنت ؟٠٠٠
-أنتظر قليلا ٠٠ سأحكى لك ٠
-بل أزيدك أن تجيبى حالا ٠٠ أين كنت ؟٠٠ ردى ٠٠٠

أتراك تعتقدين أنك بمثل فعلتك تلك تشدينى إليك وتظنين أنى سأنهار ساجدا
تحت قدميك متوسلا أن ترتبطى بى ؟
بحال من الأحوال ما كنت لأحزن لغيابك ، فلقد كنت سعيدا طوال غيبتك ٠٠
سعيدا أغنى ، وأرفع سماعة التليفون مجددا علاقاتى بمن هن سيدات لك ٠٠
فإياك أن تحاولى ذلك معى ثانيه ٠
ودعينى ٠٠
أغربى عن وجهى أيتها الحشرة ٠٠
أذهبى ٠٠لا أود أن أرى وجهك٠٠
- ماذا تقول : أنا لم أقصد شي من هذا ٠٠ لقد كنت أعود أبى بعدما سمعت أنه مريض ٠
-تعودين أباك تعودين أمك ، أنا لا أهتم بهذا ٠٠ أنا لا أهتم به ، فقط ٠٠أنا لا أقبل اعتذارات ،، وأقسم بأننى لو لم أكن كريما لما أدخلتك من باب شقتى
ولصفقت الباب في وجهك ٠٠
ولان أخرجى ٠٠أخرجى حالا ٠٠
الباب يفتح بسرعة ٠٠ ثم يغلق بعنف ٠٠
٠٠٠٠٠٠٠
٠٠٠٠
٠٠٠
عقرب الدقائق الملتحم بعقرب الساعات أبتدأ يغادره ٠٠٠٠
الدقات التى انسابت قوية فى البداية راحت تضعف وتتردد وسط الفراغ فى وهن .
حسنا ما فعلت ٠٠ لقد لقنتها درسا قاسيا حتى تتعلم كيف تحترم مواعيدى ٠
بل٠٠
بل٠٠ بل إنه هوس ٠٠ جنون ٠٠٠
فلقد فقدتها ٠٠٠ أضعتها ٠٠٠
عيناها قالتا أنها لن ترجع ٠٠
لقد أضعتها ٠٠
أضعتها بحمقى ٠٠ أضعت عمرى ٠٠
يا إلهى ٠٠
لم ٠٠ لم ٠٠٠ !!
صوت بكاء مفجوع ٠
عقارب الساعة توقفت فى إصرار .

مجلة الأدب عدد يونية ١٩٦٢

الآخـــر

.. بطرف عينه لمح الجيب المنتفخ .. كان منتفخا بشكل ملفت ، هو يعلم أن هذه الغنيمة له وإلا فما جدوى تعبه وشقاؤه . تحركت الغنيمة .. تحرك معها يلاحقها فيرتفع تارة وينخفض أخرى فى طرق بعضها ممهد يموج بالنور والبعض الأخر يكتنفه ضباب وكآبه ويغص بوحل الحفر..

بعد حين لاحظ أن هناك من يشاركه المطاردة ، فحرك عضلاته وقام ببعض الحركات البهلوانية ليبين للآخر انه أقوى واقدر ، لكن الأخر لم يرتدع ، يبدو أنه مصمم علي مشاركته ،، لكن الغنيمة له وحده ، عليه أن يبذل قصارى جهده ، وأن يسلك كل السبل انثنى تجاه الأخر :

-مساء الخير. رد الأخر وقد قطب وجهه : -مساء الخير؟

– لماذا تتابعنى ؟ - أنا لا أتابعك . - لحظت هذا . . اختبرتك وتأكدت منه . - أنك مخطئ .

– لست مخطئا،،.

– أذن لا داعى للف والدوران ، قل إني أتابعها هى لا أنت .

– لكنى سبقتك إليها !

– امتلكتها بعد ؟

– باستطاعتي أن أمتلكها ..

– وأنا أيضا . . أحاول . .

– أرح نفسك وبعها لى .

– أبيعها ؟ .. محال، أنها تطلعى .

– وتطلعى أنا أيضاً .

– أذن نتسابق . .

– نتسابق ؟ ما الداعى ؟ . . اتركها لى أعطك ما تريد .

– اتركهما لك ؟ . . إذن ما جدواى ..

– أنت مصمم أذن على السابق ؟

– بل والعراك لو اقتضى الأمر ..

عض على نواجذه وفح :

– ابتعد عنى .. لقد أخطأت ، كنت أتحسبك من طينة غير طينتم .

.. وتبع كلامة ببصقه فابتعد الآخر .

.. وبدأ السباق..

كان الأخر من حين لحين يكشر عن أنيابه ويرشقه بنظرات معادية سرعان ما ترتد متكسرة أما حقد عينيه :

هكذا حظه دائما ،، يجد الغنيمة فيسرعون إليها وينالوها دونه ، لكن هذه الغنيمة ما أروعها ،، محال أن تفلت منه .

قفز فجأة بكل قواه ، جعلته قفزته المباغتة فى مركز احسن بكثير من الأخر. . أصبحت الغنيمة فى حيز الامتلاك .
هرش الأخر مؤخرة رأسه مفكرا وهمس مقتربا من خلف :
ـ اسمع ..
ـ ما ذ ا ؟
ـ مستعد أن أتنازل لك عنها ..
ـ لعبة قذرة ..
ـ ا بدا . . أتحدث بصدق . .
ـ أذن أذهب .. دع هذا الدرب واسلك دربا أخر .
ـ والثمن ؟..
ـ أى ثمن . .!
ـ لقد قلت انك مستعد لشرائها . .
ـ حدث هذا زمان ، إما الآن فلا داعى لمساومتك .
ـ أتأخذ بعض الفتات .
ـ محال، وهو مطلب غبى .
ـ غبى؟. .
ـ مثل صاحبه .
ـ أنا غبى ؟!
ـ ولك آذان طويلة .
ـ حمار؟
ـ نعم
ـ سأذيك .. . فأنت تهيننى . .
ـ لا تستطيع ..
ـ بل أستطيع أن أقتلك أيضا، انظر .
.. اخرج الأخر من جيبه مدية يبرق نصلها، ارتعد .. وقاوم رعدته وفح :
ـ سأبلغ عنك .
ـ أنت ؟ أتقدر " ؟
ـ طبعا أستطيع .. وستعلن طيلة حياتك ..
ـ أنت تقول هذا ؟.. إن كلماتك الجوفاء لن تصل .. ستضل الطريق لأنها ضلال.
ـ ضلال ؟!!.
ـ لأنني طلبت الفتات فرفضت .
ـ أذن سأقتلك أنا . . سأفرغ طلقات مسدسى الرابض بجيبى فى صدرك وأنالها، وسترى .
ـ سنرى.
ـ أذن هو تحدى ؟
ـ سمه ما شئت ..

زفر فى غيظ ..اختلس نظرة لما حوله فوجد نفسه وقد تأخر لحظات عن الغنيمة ، وكان الأخر قد احتل مكانه المتقدم أثناء العراك ..
ملأته المرارة، ليته قبل أن يعطيه بعضا مما أراد، يا للندم لكنه لن يسلم بسهولة ، سيقتله لو أحتاج الأمر ، بل يجب ما أن يقتله أذن فليفاجئه . دس يده فى جيبه ، تحسست أصابعه القماش ، من ببين الثنايا اخرج مشرط صغير تستعمله المرأة التى يحبها فى تقليم أظافرها .
فوجئ ..
لعن نفسه ..
: إنه دائما لا يتسلح بما يحتاج إليه .
: دائما أسلحته ضعيفة تخذله .
: عليه أن يسرع فيخطف مسدسا .
: المسدس وحده السلاح الذى يستطيع إلغاء أسلحة الأخر .
لمح ابتسامة فى محل .. اشتراها .. دخل دكان سلاح رمى الابتسامة فى وجه صارف الأذونات أعطاه إذنا، مهره بختام يلصق كلمة : خالص .
.. لكنه حينما ذهب لاستلام المسدس رفض الصراف تسليمه .
أذن فليرهبه ليقل له انه من المسئولين أو أنه شرير . . ليرهبه ، راح يصرخ، ثم استعرض عضلاته وقام ببعض الحركات البهلوانية الخارقة . خاف الصراف ارتعب الرجلان صمما على إعطائه المسدس لكن لم تكن لديهم مسدسات كان الآخرين قد آخذوها .
أمام رجل من الذين يجلسون فوق الأرصفة عجوز عنده كتب وأفكار للبيع توقف، لقد اخذ منه من قبل بعضا من الكتب القديمة وصنع بها المشرط، فليأخذ الآن كتابا كبيرا .. مجلدا ضخما يصنع منه سلاحا أقوى من المسدس، فقط يحتاج الأمر لقليل من إلحاح، وكثير من الصبر، فليجلس بجانب العجوز حتما سيقلب رأسه بكلمات جوفاء لكن فى النهاية سيعطيه المجلد ليصنع به ما يخيف الآخر . قال لنفسه وهو يجلس :
ـ الصبر ..
.. وتربع قاعدا، وقبل أن يستقر قال الشيخ :
ـ قبض ريح .
حينما نهض كان معه سلاح رهيب أما الغنيمة فحتما أفلتت أنه لا يراها، اختفت واختفى معها الأخر : هكذا حظه دائما: حينما تصبح الغنيمة ملك قبضته، لا يقبض غير الحسرات، قال الشيخ :
ـ قبض ريح .
: لو كان كامل أو جورج أو مسعد أو فريد، أذن لكانت له الغنيمة منذ مدة ، لكن هكذا حظه .. خلق هكذا .
رفع يده بالسلاح ليقذف به : فما جدواه، لعل أحدا آخر يجده فيفيد منه، وانفرد ذراعه وردد صوت مكروب .
وشعر براحة لا حدود لها ، قال الشيخ :

ـ قبض ريح .
.. فى ذات اللحظة لمح الغنيمة تركب سيارة ومعها الآخر، اندفعت الدماء ساخنة إلى رأسه حتى أصبحت عيناه فى لون الدم وانطمس الصوت والتصق السلاح بجسده فى عنف : لقد عادت الغنيمة .، عليه ألا يضيعها الآن هو الأقوى لابد أن يتصرف بسرعة ، انطلق وراء السيارة ، ولما حاذاها رفع سلاحه ودفع به الأخر فصرخ .، وسقط متخبطاً فى دمائه .
توقفت السيارة ، أصبحت الغنيمة له .. له وحده ، ذات الجيب المنتفخ الذى لمحه فى البداية، جذبها إليه بعيدا عن لزوجة الدم الذى لطخها . والآن كل ما عليه أن يدفع بيده داخل الجيب وسيصل. دفع بأصابعه .. فاندفعت مارقة للداخل راح يجوس بها : لاشيء .. لا شئ ، يده تدور . . وتدور فى لهفة وجزع ، وجنون ، وسط فراغ متاهة لزجة ، بينما تلمح عيناه سيارة الأخر تندفع تجاهه صوتها مزعج .. مرتفع . عويل .
تتقدم فى إصرار . . إصرا ،إصرار .
ومن أعماقها أطل شبح الشيخ . تحركت شفتاه ولم ينطق : دفعته السيارة بعنف ، ارتمى واقعا على ظهره والسيارة تقترب ، ، تقترب . . وفى اللحظة التى سحقته فيها الآلام .. خرجت أنفاسه عن طاعته . فتح عينيه على السماء وقد كلستها غيوم سوداء، ما لبثت أن انزاحت لتصفو إلا من حبات المطر .
مجلة نادى القصة مايو ١٩٦٨

الحبــــل

كانا الرجلان يسيران بخطى حثيثة على شاطئ النهر والوقت غروب والجو حار خانق وكان أحدهما يقول للآخر مسرورا: ما رأيك ألم أتغلب عليهم ؟
ووافقه زميله:حقا فلقد أفحمتهم ولكن منطقك كان الباطل ولولا صراخك وخوفهم من بطشك لما انتصرت ولا دانك الجميع باغتصاب حق أبناء أخيك الأيتام هز الرجل رأسه فى استهتار قائلا: أو لم انتصر عليم يكفى هذا ولو أن موضوع النزاع كان يبدو فى نظر الحضور تافها حتى انهم صرحوا بان الامر لا
يستحق حتى مجرد النقاش فما قيمة حبل ولكنهم كانوا جهلة فى تصورهم أو على الأصح تظاهروا بالجهل كى يدفعوا بى إلى الفخ كانوا يريدوننى أن اعترف بان الحبل ملك أخي وبذلك تستطيع تلك المرأة اللئيمة أم العيال أن تقول أن أخى شريك لى فالحبل هو الذى يحرك المعدية بالتالى أن أخي لم يتنازل لى كليا عنها وبذا يكون لهم الحق فى اقتسام ما تدر
قال زمليه : ولكنها معديته فلقد باع نصيبه فى الدار واشتراها وكلنا يعرف هذا أما عن كونه قد تنازل لك عنها فأنت تعرف أنك أجبرته على ذلك فلقد انتهزت فرصة مرضه ورحت تضغط عليه كى يكتب لك عقد ملكيتها حتى أنك ضربته وأقسمت أن تقتل عياله أن هو لم يجبك لمطلبك
قال الرجل بامتعاض: وهل تنازل لى عن حياته ؟ انه لم يبذل أى جهد حتى يتملكها فقد باع ما ورثة عن أبيه وهو ابى واشتراها
أكد زميله : هذا حق ولكن الحبل من صنع يديه فلقد رأيته بعينى هذه وهو جالس فى الشمس والعرق يتصبب منه حتى الحبل بدا رخوا لكثر ما امتص من عرق فان كان منطقك انه لم يتعب حتى تكون المعدية فلقد شقى حتى صنع حبلها
لوح الرجل بيده قاطعا فى نفاذ صبره : كفى .. كفى لنكف عن هذا النقاش فانه أمر قد انتهى منه ولا جدوى من كل ما تقول ولن اسمح لك أو لغيرك مهما كانت قوته أن يسلبنى ذرة من مما تلكت ولننحدر مع الجسر لنشرب فهذا أجدى لأنني ظمآن .
وتوقف الرجلان يبحثان عن منحدر سهل حتى اهتديا إليه فانزلقا مندفعين إلى اسفل حتى غرس كلاهما إحدى ساقيه فى الطين وانحنيا يغترفان الماء بأكفههم ويعبانه فارتمى خيالهما فوق صفحة المجرى
كان إحداهما طويلا صلبا والثانى قصيرا احدب انزاح خياله من على الماء سريعا إذ اعتدل يقول لاهثا : ما أنقى ماء هذا المكان
وافقه الطويل وهو يتقهقر بجسده إلى الوراء حتى يستطيع إخراج قدمه من الوحل : حقاً
وسر الأحدب لتغير مجرة الحديث فأستطرد : لقد اعتدت أن أشرب دائماً من هنا

- و أنا أيضا أحب هذه البقعة ولطالما شويت بها ما أصدت من سمك
- قال الأحدب ضاحكاً : إذا فلقد أكلت من صيدك ،
- أتهزل ؟..

- أبداً فلقد أكلت بالفعل سمكاً وجدته فى هذا المكان .
- ولكننى لم أخلف شيئاً مما شويت . إنني أحمل كل ما أشويه إلي عيالي ، طه صيد أحد غيرى
وبدأ على الرجل الطويل أنه يفكر وبغتة تسأل : ولكن خبرنى متى حدث هذا ؟
- منذ أسبوع ،
- أفى مثل هذا اليوم ؟
- تماماً ،
- وفى مثل هذا الوقت ؟..
- تماماً ، فلقد كنت عائداً من المجلس بعد ما قدمت للمحكمين الدليل على ملكيتى للمعدية وحكموا لى بها صاح الطويل دهشة : يا الهى كيف حدث هذا .. أنه لعجب ولكن خبرتى ما نوع السمك الذى وجدت ؟
- لا تنزعج ... أنك لم تنس الكثير فما لقيت سوى قرموط واحد ، لقد كان طعمه لذيذ فما أجمل أن تنال طعاماً سهلاً كذلك ،

أندفع الرجل الطويل المنحدر فى صمت وقد عقد ما بين حاجبيه وتبعه الأحدب فى سكون حتى استويا على الطريق فتساءل الأحدب متعجباً ، ما بالك قد رجعت هكذا ؟ .. أتراك قد حزنت لضياع قرموط عفن ؟.. يا لك من أناني ،

- أنا .. أنا لست بنادم ولكنى فى دهشة ، أن لك عمر القطط فلك أرواح سبع بلا شك قال الطويل هذا وأندفع بقهقه ، فوجم الأحدب ثم تساءل متوجساً : كيف ؟..
- أن ما أكلت ليلتها كان ثعباناً ،

وأغرق الطويل فى الضحك حتى دمعت عيناه فلم تريا الصفرة التى غلفت وجه زميله ولم تلحظ توقفه المفاجىء عن السير ، لكن الأحدب سرعان ما آفاق فتحرك ليلحق بزميله التى كانت حدة ضحكه قد خفت فوقف ينتظر ، وما أن حاذاه حتى قبض على ذراعه بقوة وفح صوته أحقاً ما تقول ؟..

قال الطويل ساخراً وهو يضربه على ظهره : ولما لا تصدق أنك تأكل الثعابين كما تأكل حقوق أبناء أخيك ؟

وعاد يضحك بينما سار الأحدب بجواره ذاهلاً يقتلع خطواته فى مشقة محادثاً نفسه " أحقاً فلقد كان ما أكلت ثعبانا " ويتنهد " أكيد ثعبان هو .. نعم ثعبان بلا شك ، بدليل هذا المغص الذى راح يهاجم أمعائك فى الأيام الأخيرة .. أنه نتيجة وجود كيس السم متربصاً بين تلافيف أمعائك ينتظر لحظة الانفجار ، حركة عنيفة واحدة ، انحناءة ، وينفجر الكيس فيسرى السم فى جسدك لينهى حياتك ،

وفرد الأحدب وسطه دافعاً بصدره الى أمام حتى يستقيم ظهره ، ولكنه شعر بشىء دقيق يتحرك فى أمعائه فتسرى مع حركته الألم لم يتوقف بل تحركت الأوجاع تجتاح بطنه كلها لتضغط بنخسات كوخز الإبر فى صدره ، وملاءة اعتقاد جازم بأنه ينتهى وأن عليه أن يتوقف حالا وإلا فسيسقط صريعاً فوق الأرض فخطواته قد بدأت تخذله وتشكل جهداً مضنياً يزيد من قسوة آلامه

والمعدية قريبة ، وعليه أن يعرج إليها ليستريح فهو أبدا لن يذهب ليخبر زوجه وعياله لكى يحضرون لحمله الى الدار ، أنه متعب وتشتد آلامه آلامه .. وتشتد

وينحنى الأحدب متوجعاً يضغط على بطنه بكلتا يديه " لا جدوى من المقاومة لا جدوى فقط لو يتوقف هذا المغص الذى يمزق أحشاءك "
ويدد من ضغط يديه ، ويرتكز بابها أمامه فوق شيء مستدير متحجر " أنه كيس السم بلا شك ، فلينفجر ويريحك ، فلن يرحمك من العذاب إلا سريان دفعة كبيرة من السم ، وفى جنون أمسك بالثنية المتحجرة من جلد بطنه وراح يضغط عليها بأصابعه ثم براحتيه ، وهو يزوم بصوت مسموع .. يجب أن ينفجر وتستريح ،
والتقت زميله ففوجئ بمنظرة ، فاستدار متسائلاً فى قلق : ما بك ؟
لهث الأحدب وهو يتحامل على نفسه فيرفع وجهه الذى ملاءته الغضون : لا شيء ... لا شيء أنى متعب قليلاً وسأنزل الى المعدية لاستريح .. وكل ما عليك أن تخبر زوجتى لتحضر مع العيال وتقطعت أنفاسه - فـ .. لا .. تنسى ،
وانثنى منحدراً الى حيث تتأرجح المعدية فوق سطح الماء دون أن يلتفت الى رفيقه وقد انحنى ظهره حتى كادت جبهته تمس التراب ، وتناهى إليه صوت صاحبه يساءله ملحاً : ولكن أليس من الأفضل أن أمكث معك ؟..
فلوح بذراعه وهز رأسه رافضاً وهو مستمر فى زحفه حتى لامست قدماه المعدية فانكفأ فوق أخشابها يتلوى متوجعاً " أنه السم ..آ - أه ، الى هذا الحد تكون آلامه؟
أنها شنيعة ظالمة ، كان يحق أذن للكلب الأسود الذى سم أمامك أن يفعل أكثر مما فعل ، وأن يحفر الأرض – بأظافره وأنيابه بل ولحمه ، وأن يسيل لعابه أبيض لزجاً ليختلط بالتراب والدم ، لعابه .. يسيل ليصنع طينه .. يسيل من الوجع والغيظ العاجز تماماً كما يسيل لعابك أنت أيضاً لتخمد أنفاسك فى النهاية .. وتنتهى هكذا وحيد "
وهبت ريح مفاجئة فتأرجحت المعدية بعنف ، ووصلت الى سمعه حركة واهنة .. خربشة شئ يزحف فوق سطح المعدية ، وملئني شعور قاتل بالوحدة والعجز ورفع جفنيه فى مشقة وتطلع الى مصدر الصوت لكنه لم يرى شيئا وأن بدا الصوت آخذ فى الاقتراب .. وقفزت الى رأسه الفكرة القديمة التى سمعها تتردد دائما عن كون الثعابين لا يهدأ لها بال إلا أخذت بثأر وليفها " هى أنثى الثعبان إذن قد جاءت تأخذ بثأرها .. فهذا الزحف المستطيل المتصل لا يصدر إلا عن الأفاعى وعاد يفتح عينيه عن آخرها ويبحلق بكل قواه فيما حوله من ظلام ، فجأة تعثرت عيناه فى الأفعى وقد تدلت من فوق سور المعدية الحديدى على مقربة منه ، بل قبالته تماما فوجف قلبه وأنتابه خوف عظيم " وتأرجحت الأفعى بقوة للشمال كاليمين " أنها تختبر هدفها إنها ستقفز حتما فوق رقبتك لتخنقك ولكن هل تظل متكوما هكذا فى استسلام حتى تتمكن منك ؟ انتبه أنتبه ، إنها تستعد ، تستعد لتقفز ، تحرك يا مجنون " واعتدل الأحدب بسرعة ثم قفز مرتميا تجاه الأفعى ، لكنه قبل أن يتمكن منها تعثر وسقط فارتطمت رقبته بحديد السور ، اهتزت المعدية وهدر من النهر ، وصرخت الريح فى هستريا ، اندفعت الأفعى ملتفة حول رقبته فاحتبست صرخته اليائسة فى حلقه ، وفى جنون راح يتلمس بأصابعه المتشنجة طريقا الى الأفعى حتى تعثرت أصابعه فى ذيلها فتقلصت عليه تجذبه ... وتجذبه لتبعدها عنه والأفعى تستميت فتزيد من ضغطها ، وكلما اشتد الجذب شددت من خنقها ، فأخذت قواه تهن ، وتلاحقت أنفاسه لتتحول الى شهقات حبيسة لا تصل رئتيه ،ولكن يديه لم تكف عن شدها حتى تيبست أطرافه

، وهمدت الريح فجاءة تماما كما بدت ، ووصل الرجل الطويل وخلفه امرأة وعيال كثيرون كان يتقدمهم حاملا فانوسا يشع نورا قويا نزل معهم الى حيث استكانت المعدية فى حضن الشاطئ فتكشفت ظلمتها من الأحدب وقد أنكفا جسده على الحاجز فتكوم نصفه الأسفل فوق السطح ، بينما شد نصفه الأعلى معلقا من رقابته الى حديد السور ، فتدلت الرأس منحدرة تجاه النهر وتداعى الذراعان بجوارها فى همود فارتخيا يحتجزان بينهما الحبل المتدلى من أعلى السور والذى كان ملتفاً حول العنق النحيل بقوة جعلته يبدو وكأنه ملتصق بالحديد .

مجلة الأدب عدد يونية ١٩٦٣

الثمرة

منذ زمن .. ذلك الزمان الذى راح بعد أن كان، لكنه مازال يعشش فى الأعماق، حدثت يا صاحب حكاية .. وبطلا حكايتنا شاب وشابة، أحب كلاهما الآخر حبا يبلغ حد العبادة .

***

.. فى يوم قال الفتى لفتاته :

ـ سأخرج إلى الحياة، أتجول فى الغابة، سأكون بط، لن أخاف الوحوش .. وسأشق طريقى وأعود بصيد وفير لأطرق باب دارك، ونتزوج وننجب أطفالا جمالا .

وأكدت الفتاة :

ـ نعم يا حبيبى س\انجب لك أطفالا فى جمال زهور الياسمين، وسأسميهم جميعا باسمك، وسأحبهم مثلما أحبك، فإذا غبت عنى يا حبيبى، أو التهمتك وحوش الغاب، فلن أكون لغيرك، سأترك شعرى يستطيل حتى يخفى ملامحى عن أى رجل سواك، وسيملأ الحزن عيونى حتى لينعكس حزنها على كل المرئيات .. فتصبح مكتئبة مكتئبة، وإذا أجبرونى يا حبيبى ودفعوا بى ثبتثمر .

***

وذهب الفتى يا صحاب وغاب ..

وطال البعاد واستفاض، وجاء غراب البين فحط على شجرة الأسى، وأعلن فى القرية أن الفتى فد التهمته وحوش الغاب، فلقد كان طيبا رقيقا لا يعرف الحقد ولا الخبث ..

***

وأطلت الفتاة من شباكها تناجى القمر وتستحلفه أن يدلها على مرقد حبيبها الغائب، ولكن القمر لم يستجب لتوسلاتها، فلقد تجهم وجهه وتلبد بالغيوم، بمجرد أن التقت عيناها بعينيه، حتى طمسته غمامة سوداء .

***

ومرت الأيام ...

وهى دائما تمر ...

وجاء رجل فى يوم مطير، جاء على حصان نسج سرجه من ذهب وفضة، ملأ جيوب أباها خطوة يقربها فيها من الغريب، الذى يملك جوادا سرجه من ذهب وفضة .

***

وفى قصر ضخم يموج بالعطر والبذخ وضعوا الفتاة، وراحوا يسقونها ماء الورد، ويضمخونها بالعطر، ويطعمونها خلاصة الحيوية والنشاط .

وكأنما مست الفتاة روح شريرة تحط لعنتها على كل شيء فتمنع الخير منه، فلقد راحت الفتاة تضمر يوما بعد يوم، حتى جف شعرها وتساقط خصلا على الفراش، حينما دفع الرجل الذى يملك حصانا نسج سرجه من ذهب وفضة بيده بين خصته ليقربها إلى صدره .

***

ليلتها يا صحاب .. قال الرجل الذى نسج سرج حصانه من ذهب وفضة، وهو يدفع بالفتاة بعيدا عنه :

ـ لقد أجدبت وجف منك ماء الحياة .

وتركها وخرج ليمتطى حصانه وينطلق به، ليعود مع المساء بفتاة تحاكى القمر حلاوة، وتتفجر بالحياة، حتى ليحال من يراها أنا تستطيع أن تنجب ما يملأ الدنيا أطفالا .

***

ومنذ الليلة الأولى أنجبت له طفلا، وتوالت لليالى وفى كل ليلة تنجب له طف أو طفلين .

عيالها على استئصال الفرع العجوز .

***

وخافت فتاتنا يا صحاب، خافت أن يرموا بها إلى القفار الشاسعة التى تحيط بالقصر، وتطلعت من نافذتها فوجدت متاهات لا حدود لها ستمتصها حتما إذا ما دفعوا بها خارج الأبواب .

وحركت الغيرة دماءها، و قالت لنفسها متعجبة : هل يعقل أن تطردنى هذه الفتاة الغريرة التى لا تعرف شيئا عن مناجاة القمر، ولا تتقن سوى إنجاب الأطفال ؟!!

فاندفعت الدماء هائجة فى شرايينها، فطرى عودها، وأرسلت فى طلب النسوة العجائز، وسألتهم المشورة، فقلن أنها قد نسيت كيف تنجب الأطفال، وأنها لن تنجب إلا إذا بقرت بطن وحش من وحوش الغاب، التهم جسد إنسان لا يفنى، وعليها هى أن تفنيه لتنبت البذرة بداخلها .

***

وخرج الرجال الأقوياء يصرخون بين الشجر والصبار والشوك وهى تتبعهم بلهفة، حتى عثروا فى الوحش المنشود، فاندفعت تشق جلده وتدفع بأصابعها بين أحشائه حتى تعثرت فى جسد دافئ، دفع ملمسه بالقشعريرة فى بدنها، وودت لو تظل تتلمسه حتى تذوب فيه، ولكنها تذكرت أن عليها أن تفنيه، فالبذرة فى أحشائها تكاد تجف، فسارعت تغرس أصابعها بين ضلوعه ملتمسة مكان قلبه، حتى عثرت عليه فراحت تضغطه بقوة حتى توقف عن وجيبه ..

وتنهدت الأم فى راحة ...

وتحركت البذرة...

.. أخيرا تحركت البذرة داخل أحشائها يا صحاب، فانتفخ بطنها، وقامت من جوار الإنسان الذى كان، وهى لا تكاد تقوى على الوقوف من شدة امتلائها، وقبل أن تمضى التفتت لتلقى نظرة على ذلك الذى وهبها من فنائه حياة، والتقت عيناها بعينيه، فصرخت ملتاعة حتى تقطعت أعواد الياسمين، وقفزت الثمرة من أحشائها طفلا جميلا يحمل كل معانى الحياة، سقط فوق جسد حبيبها الذى كان له ما كان .

مجلة نادى القصة ١٩٦٨

الذى مات

من خلال حديد الشرفة تسلل غصن أخضر تفتحت أطرافه من زهور جميلة لونها خليط من الأبيض الناصع والأزرق المشرب بالحمرة ليستقر فوق مقعد من قماش.
فى مواجهه المقعد ، علق على الحائط قفص بداخله عصفور يقفز مزقزقاً فى حبور للصبح الجديد من باب الشرفة أقبل فتى يمتلىء حيوية وتفيض قسماته بالبشر ، جلس على المقعد وتطلعت عيناه الى العصفور وابتسم فى حب وهمس يحادثه :
- أنك عصفورى الحبيب ، لقد آن لك أن تنطلق من قفصك الى الحياة الرحبة لتحقق أرادتك أنه عهد قطعته على نفسى أن ادعك طليقاً فور انتهائي من دراستي ، وها أنا قد أتممتها بنجاح ، وأى نجاح ثانى دفعتى أى أننى ساعين معيداً فلقد عين الثلاثة الأول فى العام الماضى معيدين ، وتنهد فى سعادة نعم .. سأصبح معيداً وتتاح لى الفرصة لكى أدرس وأتوسع .
وشرد بصر الفتى ، واستحال همسه الى صمت وغامت عيناه بالرؤى فإذا به جالس الى مكتبه يبحث وينقب ويستخلص معارف جديدة تجعله يستعذب ما يبذل من جهد فيستمر ويتعمق حتى تتكشف له الطلاسم التى حيرت أساتذته فأوقفهم أمامها متسائلين فى عجز عن مسبباتها .
ثم يقفز به خياله فإذا به يحمل رسالة لتناقش أمام لجنة فطاحل العلماء الذين جلسوا منصتين له فى إعجاب وقد بهرهم ما يسوق من حديث حتى أستاذه القديم نهض متجهاً إليه وراح يشد على يده مهنئاً وهو يردد فى اعتزاز :
- نعم التلميذ أنت .. رائع .. رائع يا أستاذ، بل أكثر من رائع .
فتتلاحق دقات قلبه ، وتغمر الفتى سعادة لا حد لها يتوقف أمامها خياله لا يريد أن يفلتها دون أن يستخلص منها أقصى متعه فيروح يستعد الصورة مرة .. ومرة ..
فإذا بالأستاذ ينهض وإذا باليد تعانق اليد وإذا بالفم يعيد :
- رائع يا أستاذ .. رائع .. بل أكثر من رائع ..
وتنساب كلمة أستاذ بين حناياه تدغدغها بحذر لذيذ فغاية الأمل أن يكون أستاذا، ولكن هل يرضى الجمود عند حدود معينة ؟
.. ابداً .. انه لن يتوقف سيسعى دائباً الى آفاق أرحب وأوسع وسرعان ما يستجيب خيال الفتى فإذا بواجهات المكتبات تزدان بكتبه وإذا به صاحب مذهب محدد ومدرسة معروفة وإذا بالبيئة العلمية تتخاطفه فتدعوه لحفلاتها وتقيم له الندوات بل وتصدر عنه كتباً عديدة تحكى قصة نجاحه ..
.. ويفيق الفتى على صوت ينساب من داخل البيت مستفسراً :
- ألن تذهب الى كليتك يابنى لتعرف ما صار إليه أمرك فلك أيام لا تفعل شيئاً غير الجلوس الى عصفورك وأطعامه .
.. كف العصفور عن تحليقه داخل القفص وتشبثت أظافره بالحديد البارد، ودعك الفتى عيناه وهز رأسه مرات ليفيق ثم تمتم :
- أنى ذاهب لتوى يا أماه ..
.. وقام من مجلسه ووقف قبالة القفص، ومد أصابعه من خلال القضبان محاولاً أن يلمس العصفور لكنه لم يستطع، فقد حال الحديد بينه وبين ما يريد فتنهد :
- عليك يا عصفورى أن تنتظر حتى اطمئن وأعرف الى أين ستمضى ، نعم يجب أن تنتظر أياماً أخرى فمصيرك فى الواقع لم يزل مجهولاً ومن النز زق أن أدعك تمضى هكذا دون استناد الى واقع مادى يطمئن على مستقبلك حتى لا تنوح تتخبط وسط متاهات لا تحدها حدود فتمتلىء نفسك بالمرارة والأسى فما أقسى أن نشعر بأننا نضرب فى الحياة بلا هدف فى حين تتساقط لحظات وجودنا فى رتابة كالعدم فننتهى وكأننا لم نكن ليمتصنا باطن الأرض فى قبور بلا شواهد .

.. وغلفت وجه الفتى سحابة حزن ثم استدار مبتعداً .
.. ومر الوقت ..
.. وبدأت الشمس تغوص مختفية فى الأفق الغربى فانكمش العصفور يزقزق بصوت خفيض أغنية الوداع وأنفتح باب الشرفة عن الفتى الذى تهاوى فوق المقعد ونظر الى العصفور فى حزن ثم غطى وجهه بكفيه وراح يغمغم فى قنوط :
- لقد انتهى كل شىء ..
.. وعاد يدفن وجه بين كفيه :
- لقد انتهى كل شىء لن يأخذوا معيدين هذا العام .
.. فجأة صفا ذهنه فتساءل :
- هل يدعو ذلك لليأس ؟
.. تحرك العصفور ونفض ريشه :
- بحق لم اليأس ومجالات الدراسة مفتوحة ومجالات العمل أوسع فلم لا ينزل الى الحياة العملية ليطبق أفكاره ويحققها ؟
.. ورأى الفتى نفسه فيما يرى النائم وقد وقف فى أحد المعامل يحلل ويختبر ويستنبط وكان يرتدى معطفاً أبيض أبيض كسحابه صيف .
.. جلس الفتى فى سريره يقلب صفحات الجرائد، وتمر عيناه على السطور :
.. مطلوب كاتب حسابات متمرن .
.. شركة تطلب مشرفاً اجتماعياً .
.. مكتب كبير بحاجة لسعاة ..
.. مطلوب مترجم الفرنسية والإنجليزية .
.. أمين مخزن ..
.. مندوبين بالعمولة .
.. سكرتيرة حسنة المظهر ..
: .. ولكن أليس هناك من يحتاج الى مبتكر ؟
.. ويقلب الفتى الصفحة ..
.. ثم يبدل الجريدة ..
.. وتتبدل الأيام ..
.. وتسأله أمه :
- ألم تعثر على عمل يناسبك بعد ؟ ..
- جميعهم يريدون آلات لا عقول ..
- ولكن يجب أن تعمل يا بنى !
- مستحيل أن أقبل مثل تلك الأعمال .. وإلا فلم أجهدت نفسى فى الدرس والتحصيل ؟!
.. وتشفق الام عليه فتبتلع ما كانت تود أن تقول، وتسكت لحظات .. ثم تقتنع بأن عليها أن تقول .. تهمس بجب :
- يا بنى أن .. أنه صاحب البيت أنه يطالبنا بالإيجار وكذا البقال والجزار كل يريد ماله ، ومعاش أبيك انقطع منذ ، تخرجك وما أخذه أنا لا يكفى كلانا، لم لا تنزل الى الطريق لتطرق الأبواب بقبضتك ؟
- وماذا أقول لهم هل أصرخ مع دقاتى : فتى مجتهد للبيع ؟
- لا أقول لك أفعل هذا يا بنى ولكنى أرى أنك تملك العلم والشباب وكلاهما يكفل لك الوصول لما تريد .
وينزل الفتى إلى الطريق وتحمله ساقاه إلى كل مسلك ويقابل بابتسامه مشجعه :
- قد تجد ما تريد عند الآخرين أن ما يريد هو ذلك الذى أعلنا عنه الجرائد .
.. ويتحرك الفتى يذهب الى الآخرين ليقولوا له :

- عند الآخرين .
.. والحذاء نعله تمزق، والطريق الذى كانت تسقط فوقه خطواته ليتحرك فى سهوله أخذ يلتهب، ثم يتشبث لاسعاً بقايا الحذاء والجورب .
.. أكدت الأم :
- لابد من حذاء جديد وإلا ستشل ساقاك .
- من أين ؟
- من كدك .
- نعم .. من كدى .. من كرامتى .. من آمالى ..
- يا بنى إذا أردنا أن نبدأ فعلينا أن نضحى ببعض من مظاهر طموحنا أما اللب فعلينا إلا نفرط فى ذرة منه ..
- أذن سأذهب غداً لأتسلم ذلك العمل الحقير ، ولكنى لن استسلم سأدرس فى فترات راحتى ..
.. وشعر الفتى بأنه يكره قدميه والجزار وصاحب البيت وكل ماديات الحياة التى تدفعه لكل هذه المهانة، ولم يجد راحته إلا فى البكاء ..
.. جلس الفتى وأمامه آله حاسبة يدق أزرارها فى رتابه ثم يضغط ببطن يده زرا عريضاً فتتحرك الأذرع مجمعة رقماً كبيراً فى لوحة شفافة أرقام ضخمة جنيهات يستطيع أن يشترى بها مراجع ومراجع ..!
آخر الشهر .. أمسك بالجنيهات التى وضعوها فى كفه فتبخرت آماله وشعر بمرارة وحنق عظيمين، وبلا وعى راح الفتى يقلب الجنيهات بين كفيه وهو يحس بالمهانة :
- يا الهى .. اهكذا يكون كد الإنسان بخساً فلا يكفى حتى لسداد مطالب فمه ؟ ..
قالت الام :
- يجب أن تحاول العمل أكثر من هذا يا ولدى فالشتاء على الأبواب وملابسك كادت تضحى اثمالا .
.. وتوسل الفتى حتى أستطاع أن يظفر بساعات عمل إضافية تبخر أجرها فى وقفه أمام واجهة إحدى المكتبات وكان عليه أن يستمر فى عمله الجديد بعد أن أقنعته لسعات البرد بضرورة شراء حلة جديدة .
.. ومع انتصاف الليل يعود الفتى لحجرته فينظر الى ما اشترى من كتب والآلام تعتصر جسده المكدود والحسرة تمزق أعماقه ثم يرتمى فوق فراشة وقد شمله قنوط مريع، ويروح فى اغماءة لا يصحو منها إلا مع اشراقة النهار ..
.. تساءلت الام ذات صباح قبل أن يغادر البيت :
- لقد نسيت عصفورك يا بنى فلم تعد تطعمه، ولقد كاد خزينه من الزاد ينفذ .
.. أجابها متأففا وهو يسحب الباب وراءه :
- سأحضر له طعامه وأن كنت أرى أنه لم يعد يهمنى أمره، فلقد كان مصدر آلامى قبل أن آنساه، ليته يموت .
.. وتمر الأيام والام تلح والفتى لا يجد من الوقت ما ينفقه فى ابتياع غذاء لعصفوره، سأله زميل فى العمل عن المراحل التى قطعها فى أعداد رسالته العلمية، وعلل تساؤله بأنه قرأ فى جريدة اليوم أن هناك هيئة كبيرة ستعطى منحة تفرغ للأوائل الذين سيتقدمون بتخطيط مدروس لأبحاثهم، ماجت أعماق الفتى بانقباض قاتم ، وخرجت كلماته لا تحمل أى جواب ، مجرد صرخات يائسة :
- أنها ورائى، تدفعنى دائماً، لا تنقطع عن الصرخ فى : طعامك لا يكفى ملابسك لا تلائم دائماً تصرخ فى .. دائماً .. دائماً فلا أكاد أدرك الى أين أمضى ..
.. وانقضت ساعات العمل، وفى طريق العودة عرج الفتى على دكان ليشترى طعاماً لعصفوره .. لكن الدكان كان مغلقاً فأتجه لبيته ولما سألته أمه :
- إلا أتيك بطعام العشاء يا بنى ؟ ..

أجاب بأنه لا يريد أن يأكل فلا ميل به للطعام ..
.. وحينما أوشك الليل على الانتصاف شعر الفتى بحنين جارف لرؤية عصفوره فنفض عنه الغطاء، وفتح باب الشرفة، كانت الريح تعوى، والرعد يدوى، والبرق يضيء فى ومضات محمومة مرتعشة، أقترب الفتى من القفص، تطلعت عيناه فلم تريا شيئاً، كان الظلام قاتماً وانتفاضات البرق قد خمدت، قرب وجهه من القفص حتى التصق الحديد بارداً بجبهته، فجأة دوى صوت الرعد، وتألق نور البرق خاطفاً للحظة، لمحت عيناه العصفور وقد أرتمى ميتاً على أرض القفص، توجعت أعماق الفتى وود بكله لو أنه الذى مات، ودوى صوت الرعد من جديد، لكن البرق لم يومض، وتسمر الفتى يرتعد وسط قتامة الظلام .
.. من بعيد آتاه صوت أمه متسائلاً فى قلق :
- لم أنت مستيقظاً للأن يا بنى، أنسيت أنه يجب عليك أن تصحو مبكراً لتستطيع اللحاق بعملك ؟
استدار الفتى عائداً الى حجرته وهو يرتعد، ثم رفع صوته فخرج متسلخاً كأنه بكاء :
- لا .. لم أنس يا أمى .
ارتمى فوق فراشه فأحس بالرعشة وزادت انتفاضات بدنه فمد يده يجذب الغطاء فوقه وشعر بالدفء فتمتم متنهداً :
- حقاً يجب أن أستعد لغدى كل ما على أن أغمض عينى وسأنام .
وأنفرش اللحاف فوق الفتى فغطاه وبدا الفراش فى الظلام منبعجاً من الوسط كقبر بلا شاهد .

مجلة القصة مارس ١٩٦٥

قصة قصيرة

فخرى فـايـد

الطبـال والمـدفع

الاسطى سنية :

أطلقت الاسطى سنية ضحكة ممطوطة حين رأتنى مرتدياً ملابسى العسكرية . مما جعلنى أنظر سريعاً الى بنطلونى وحذائى وأتحسس وضع غطاء راسى فوجدت كل شىء تمام .

.. أذن على ماذا تضحكين يا اسطى ؟

- بالذمة أكان الجيش لا ينقصه الا وجودك يا تعيس ؟ .. طبلجى عوالم نصف لبة بماذا سيستفاد منك ؟ .. أسيجعلونك ترقص نساء صهيون ؟!!!

أغرقت الاسطى فى الضحك، شاركتها البنات الضحك، إلا زينات فلقد ظلت على صمتها والعينان مركزتان على تهمس فى ود " تحمل ولا تبالى " .

.. هكذا أنت يا زينات انسانة طول عمرك .

- يا أسطى أنا قلت أمر عليكم للاطمئنان ، لم يهن على أن أنزل أجازه بعد غيبة ثلاثة أشهر ولا أراكم .
- فيك الخير يا مهندس .
- قالتها زينات . هكذا يحلو لها دائما أن تناديني . كانت تقول في كل مكان : فتحي مهندس . طبل لي كثيرون قبله ما حركت دقات واحد منهم أوصالي مثلما حركتها دقات فتحي .
- أسرعت بالهرب من حجرة اللأسطي سنية منتهزا فرصة صمت البنات، بعدها فوجئت بترحيب زينات فهي خيرهن ، فما من زبون طلب واحدة منهن . الكل يطلب زينات لأنها فنانة بحق وحقيق.
- خرجت من المنزل وأنا منقبض القلب . فلقد تبددت كل أحلامي وتمنيت لو لم أنل أجازة الـ ٤٨ ساعة التي رحت أحلم بنيلها علي أمل أن أجد المأوي فى منزل اللأسطي سنية حيث حجرتي ومقري فليس لي بالقاهرة مكان أخر لأنني مقطوع من شجرة، تربيت وكبرت في بيوت ناس كثيرين، ولم أجد منهم رجلا يقول لي كما يقول للأطفال الأخرين الذين هم في مثل سني : يا أبني، ولم أسمع ولا ست من سيداتي تخطيء فتقول لي : يا بني . صحيح أنني أعرف أسم أبي كما . أنه مثبت في شهادة الميلاد التي أحتفظ بها كالحجاب داخل كيس من النايلون يغلفه كيس من القماش ثم كيس ثالث من المشمع مرسوم عليه وردات حمراء .

.. لكن أسم أمي مشطوب تماما . ولا أتذكر أني نجحت مرة واحدة في استرجاعه رغم أن ملامحها كانت مرسومة في مخيلتي بشكل محدد وواضح ومتميز كتلك العلامات التي تفرق بين أشكال الطائرات رغم أنها جميعا تطير في السماء !!..

الست إيناس :

سألت نفسى لماذا لا أذهب لأبيت بمنزل الست أيناس ؟..

لكن كيف يحدث هذا ولى خمس سنوات أو يزيد لم تطأ قدمى عتبة بيتها ؟!

الست ايناس أم لثلاث بنات يتيمات . فقد أستشهد أبيهم فى حرب عام ١٩٤٨ وهى التى علمتنى اصول تحريك الأصابع فوق جلد الطبلة .
كنت أشعر بولاء غريب للست ايناس ولبناتها . كنت أحسها أمى وهن أخواتى . ولولا اننى شعرت بأن سنى لم يعد مناسباً للعمل وسط بنات جميلات ناضجات . لما تركت خدمتهن معرضاً نفسى لأيام من الحزن المميت لفراقهن .
. .. اخص عليك يا أسطى سنية بدلاً من أحظى بليلة راحة أو ليلة عمل ونقوط جعلتها ليلة ضياع فى شوارع وحوارى لم تطأها قدماى .
- أنا فتحي يا ست إيناس . افتحي .
- هي .. هي.. لم تتغير، تأملتني طويلا :
.. عرفتك ولا تعرفينني . لك عذرك فكم عمل عندك من أمثالي .
- ألا تعرفينني يا ست إيناس .. أنا فتحي نقار الطبلة .. وقبل أن أستطرد .وجدتها تندفع لتحتضنني في شوق ولهفة :
- فتحي .. أبني .. لماذا تركتنا فجأة .. لم كل هذه الغيبة ..
- تركتني تراجمت للواء. راحت تتأملني :
- والله كبرت يا فتحي . تصور لم أعرفك .تعال . أدخل البنات دائما يسألن عنك . لا يمللن الحديث والذكريات . حتى الهام رغم زواجها دائماً تسأل عنك كلما حضرت عندنا حتى غار زوجها منك وقال : أود أن أرى هذا الفتحى الخرع .
عادت تنظر الى متفحصة ثم ضحكت :
- ليته يراك حتى يعلم أنك لست خرعاً . هو أيضاً فى الجيش . رتبته كبيرة لكنه يحمل شارة مثل شارتك . أنتما فى سلاح واحد لعلك تعمل فى فرقته . ليتك تجيئين الآن يا الهام .
- من يا ماما ؟.
- فتحى يا بنات
تصاعدت صرخات الفرح ووجدتنى لأول مرة فى حياتى محاطاً بمن يهتم بى ويسأل عن أخبارى، ولم أتمالك عواطفى . أجهشت فى البكاء متذكراً كل ما مر بى خلال يومى : الاسطى سنية . أمالى المحبطة . ضياعى فى الشوارع . الأحساس بالغربة واللاأنتماء ساقاى التى تؤلمانى . جسدى المنهك . أمالى الضائعة فى يوم راحة .

منذ ذلك اليوم وصلت ما أنقطع بينى وأسرة الست ايناس التى قالت لى وهى تودعنى أنها كانت تتمنى لو يكون لها ولد يواصل نضال ولدها الشهيد، ولقد عوضها الله لأكون أنا هو .

هى الحرب :
- كل الأفراد أنتباه .
- ضباط الفرق يشرحون للأفراد مهمة الهجوم ثم يأخذون التمام أستعداد للساعة س .
- أذن هى الحرب .
.. جاءت اللحظة . الحمد لك يا رب .
.. أحساس بالراحة جرى فى عروقنا .
.. أخيراً سيكون للأنتظار نهاية .
أندفعنا نعبر الممر المائى ، نحمل فوق ظهورنا صواريخ الطيران المنخفض . مهمتنا حماية الأفراد المقاتلين فى العمق من هجمات الطيران ، تعبر معنا وحدات من الصاعقة .
- جاء يوم اللقاء

- سأسقط من أشباحهم عشرة .
- أراهنك على ضعف ما ستسقط .

يا رب .

يا رب .

أمي .. أمي :

- الله أكبر .
- الله أكبر .
- الله أكبر .
- الله أكبر .
- الله أكبر .
- الله أكبر .
- الله أكبر .

باسم الله صوتنا يزلزل الأرض . أقوى من دوى القنابل . أكثر أرتفاعاً من هدير المدافع . أقدمنا تغوص فى رمال أرضنا الثكلى منذ سنوات ست . عيوننا على السماء . طيراننا ضرب العدو فى العمق، والتف وعاد . لم تنقص طائرة واحدة .عددتهم فى الذهاب . عددتهم فى العودة ..

- لك الحمد يا رب .
- ظهرت طائراتهم تريد اللحاق بنسورنا، كشرت عن انيابى، توترت أعصابى، زأرت :

.. أقتربى . تعالى .. والله لن أمكنك من أطلاق صاروخ، أو أسقاط قنبلة . خذها يا أبن صهيون .
اندفع الصاروخ من خلف ظهرى يتوهج شاقاً طريقه فى ثقة وهو لا يحيد . هدفه نجمة داود الزرقاء، دوى أنفجار رهيب وأمتلاءت السماء بأشلاء الفانتوم تطاردها صرختى ..

- الله أكبر .
- تردد التكبير بجانبى :
- الله أكبر .
- صرخ زميلى فى سعادة :
- أسقط أنا أيضاً طائرة .. واحد لواحد يا عم فتحى . شد حيلك .

.. كانت طائرتهم تتساقط، راحوا يناورون، لم يستسلموا تماماً لمصيرهم هربوا لأعلى . ثم أصبحوا لا يهبطون من أرتفاعتهم الشاهقة، حتى لا يطاردوا من الشبكات الأرضية وتفتت طائرتهم كالشهب ولكن هذا اللعين . هدفى الثامن عشر . أنه يهبط . يدنو من الأرض يناور . ماكر أنت يا روح أمك . تدور . تلف . لن أعتقك . سأكسر وسطك مثل زينات وسط معازيم الفرح . لكنك فى النهاية ستسقط عجزاً مع دقة النهاية .

.. أصابعى تدق فى ترقب فوق زناد الصاروخ متابعة تحركاته البهلوانية . الطائرة تتلوى . عينى ترصدها :

- كسرت وسطى الله يكسر وسطك يا فتحى .

هبوط مفاجيء لأسفل . ثم صعود لأعلى :

- سأسقط من طولى يا فتحى .
- أثبتى يا زينات . هيا أسقطى .. أسقطى . هذه نقرتى الأخيرة لا تناورى . أعترفى . أعترفى وسلمى . لا ترتمى فوقى . ليس فوقى أنا . ستسقطين على أبتعدى . . أبتعد . . ملعونين .. قتله .. أشرار .
- أ .. أ .. ه .

- اسمك يا بطل ؟.
- أ .. أ أسمى ؟!
- أسمك يا بطل ؟.
- بـ ..بطل .. بط ..
- اسمك ؟
- فـ .. فتحـ ..ى .
- فتحى .. ألك أقارب ؟
- أ .. أمى ؟
- اسمها ؟..
- أ ..أينـ ..اس .
- عنوانها ؟
- عنوانـ• • •
- عنوانها يا فتحى . عنوان السيدة ايناس ؟

.. رأسى ثقيل . ثقيل، رفعت جفونى المحملة بأكياس الرمل . لا شىء سوى الظلام . لا أرى السماء جيداً، رصيدى مازال ١٨ . أين الـ١٩ . الله اكبر . تحيا مصر . تعالى يا أمى يا ست ايناس . أنظرى ١٨ طائرة لست خرعاً كما قالت المعلمة . أنا كفء . بطل . أدق على زناد مدفعى أحسن من دقاتى على الطبلة .. مهندس هنا أيضاً يا زينات . أ .. أ ..

- حمدا لله على السلامة .
- كتب لك عمر جديد يا بطل .
- ستة أيام فى غيبوبة ..
- أعرفك على علاء زوج أبنتى الهام يا فتحى .
- لقد أثبت أن فكرتى عنك خطأ يا بطل .
- هو فخور بك وفخرى بك أكبر يا بنى .

..وددت لو أخذتنى أمى الى صدرها لأبكى، كنت أريد أن أقول لها :

- يا أمى .. ليست أصابعى فقط أصابع طبال ..

ولكن هدير الاصوات كان يغطى كل الموجودات :

- الله أكبر . الله أكبر • • • الله أكبر .
- اعتدلت صارخا :
- اتركونى لاسقط طائرة فقط لاستريح .

انحنت تمسح جبهتى بكفها :

- ولدى .. لقد أسقط ما فيه الكفاية الا ترحم نفسك .

.. كان صوتها ملائكياً تسلل الى أعماقى يزيح كل الألم

- أ .. أ .. أمى ..

آه يا حبيبتى يا أمى .

مجلة النصر عدد مايو ١٩٧٦

الرجال والمدفع

حينما دوت فى الوجود أغنية الفداء ، بدءوا يتململون فى وقفتهم فاحتضنتهم إلى صدرها الذى يمور بماء الحياة وانسدل شعرها الأخضر وقد تخللته شعيرات صفراء يحوطهم ' لكن أصداء الأغنية ارتفعت علت فارتخت يداها من حولهم وانطلقوا يحيطون بها وهى تحتويهم بعينيها ثم ناولتهم المدفع فتناوله الواحد من الآخر .

الرجل الأول :
تصاعدت فقاعات الهواء فوق سطح البحر الساكن واندفعت الغواصة لأعلى . الهدوء يلف كل شئ عاصمة العدو غير بعيدة عن مرمى المدافع .
هناك .. على الشط تحركات أشباح تروح وتجئ وسط الظلام
. فجأة ،، تساقطت الأشباح .. تبدد الهدوء ،، ولى الصمت فتحت الغواصة نيرانها
. وكان هو واقفا بمدفعه فوق سطح الغواصة يرقب اقتراب أى غريب
كفت الغواصة عن إطلاق النيران ، بدأت الأوامر تصدر إليهم : - انتهت المهمة .. ليعد الجميع إلى الداخل .. الاستعداد للغوص . تدافع المقاتلون إلى الداخل من خلال الفوهة الضيقة ، ولكنه توقف فجأة وتخلى عن مكانه وتقهقر ليكون فى نهاية الصف . كان قد سمع دوى محرك طائرة أيقن بالخطر المحدق : مع الغوص تنطلق الصواريخ من الطائرة فتغرق الغواصة . لن يتمكنوا من هذا ، ضغط على نواجزه .. . ووقف وقد فتح ما بين ساقية والمدفع فى يده مصوب لأعلى، حومت الطائرة رصدت الهدف ، تأكدت منه ثم ابتعدت لتقوم بدورتها . صرخ صوت من داخل الفوهة - عد إلى الداخل .
لكنه لم يستجب وبدأ العد : واحد . . اثنين ثلاث أ. . ر .. ولم يعد يسمع شيئا سوى ارتطام غطاء الفوهة وانطلق مدفعه الرشاش يواجه الطائرة المقتربة مئات الطلقات تدافعت وسمع صرخة بددها انفجار الطائرة ثم سكن كل شئ الأمن الفقاعات التى تبعثها الغواصة مع هبوطها لأعماق البحر بعيدا عن الخطو . حينما وصل الماء يغطى ساقيه امسك بسور الغواصة ورفع مدفعه لأعلى فمدت يدها تحتضنه إلى صدرها ، وعلى الصدر كانت تنتظره نفيسة بجلبابها المزركش وقد مدت يدها فتناولها وانطلقا معا زوجا و زوجة .

الرجل الثانى :
المطار ساكن الصباح بعد لم يتفتح كلمات الرسالة التى يعث بها إلى أولاده الخمسة لم تزل حاضرة فى ذهنه ، هناك بشاش سلام ولكن هل يعترف مصاص الدماء بالسلام وعيناه شاردتان تعيشان وجه ولده خالد، واللحظة الأخيرة وهو يتعلق برقبته معانقا ومودعا:
بابا: أريد أن أكون بطلا مثلك .
آه يا صغيرى الحبيب ،من أدراك أن بابا سيكون بطلا قد اجبن ساعة القتال ؟ التقطت إذ ناه صوت أزيز بعيد أدرك بخبرته انه لمجموعه من الطائرات . لكن طائرتنا على الأرض وليست هناك أيه طائرات فى الجو . أرهف السمع : أنها أصوات طائرات غريبة ، ولكن هنالك سلام . تسلل فى صمت إلى الخارج كل شيء هادى النوم يلف المطار والأرض ، شجرة الزيتون تتحرك أغصانها ببطء وصوت الطائرات يقترب ،. يرتفع ، بلا شعور اتجه إلى اقرب مدفع جلس اليه وأعصابه مشدودة.
—بابا .. أريد أن أكون بطلا مثلك . وهى تنتظره ، دفء الاحتضان لم يزل حرك دماءه .. يراها تحتضن أبناءه والطائرات بدأت تدفع بالهواء فيثير شعر رأسها ،انفتحت فوهة المدفع استحالت السماء جحيما وتساقطت قنابل من السماء وتفجرت الأرض وهوت طائرة ولحقتها ثانيه وثالثة جن جنونهم

اقتربت منه ست طائرات على مرمى اليد اقتربت منه واندفعت طاقات حقدها ". طيرت ساقه لاحقت نظراته الساق الطائرة للحظة ثم سكنت فوق عيون زملائه التى تغلفهما ظلال نوم وشفق حاولوا أن يحمده بعيدا عن المدفع صرخ فيهم :

-دعونى فهذا مكانى ومكانكم أيضا ،، هيا خذوا أماكنكم . جروا إلى مدافعهم واستمر هو يطلق نيران مدفعه لمسته يد، التفت : طبيبا شاب ومعه ممرضتان ، أشار إلى ساقه ، أومأ إلى الأرض يتمدد عليها ، لكنه أشاح بوجهة . - لن أتخلى عن مكانى، افعلوا مابدا لكم وأنا فى مكانى، ينبوع الدم يتدفق من الاورطة والشرايين الإبر تنغرس فى لحمه وهو يلاحق الطائرات بطلقات محمومة، الكلمات مطموسة.. - لا جدوى . النزيف لا يريد أن يتوقف . قال لنفسه : عن أى شىء يتكلمون ليقولوا ما بدالهم قوله . لكنى سأهديك الطائرة الخامسة يا خالد :هى لك

وسقطت الطائرة مشتعلة، وانهار هو فوق المدفع بدون نقطة دم واحدة ومن السماء تهاوى على جسده فرع محترق طار من شجرة الزيتون .

الرجل الثالث :

لا يدرى كيف وجد نفسه أسيرا وسط المئات وحولهم سور شائك، كان مدفعه ينطلق وكانوا يتساقطون، كانت ماسورة المدفع تلتهب ، فكر كثيرا فى مدفع أخر أقوى واشد .. فى كليته درس نظريات وعمليات خلط ودمج للحديد بالعناصر الأخرى، تمنى أن يطورها ليخلق منها مادة جديدة تستطيع أن تدمر أعداء السلام ، دون أن يستطيعوا تدميرها .

المعسكر ضيق بالنسبة لمئات المكدسين به ، لكن الشمس الحارقة لم تدع فرصة لأحد أن يفكر فى مثل هذه الأشياء، كانوا جميعهم وقوفا، وكان هناك تحت رجليه طفل يبكى بقوة وباختناق، مد يديه، رفعه لفوق، واحتضنه إلى صدره، سكت الصغير، بينما كان هناك عجوز يبرطم فى ضيق قالت العجوز مجاورة له تنهره :

- لن يسألوا فينا يا رجل أتظنهم أمثالنا ، لن يقدموا لنا شيئا لا دواء ولا ماء ولا طعام فدع عنك الوهم .

سكت العجوز عن همهماته الملحة، ثم تهاوى ساقطا فى يأس تحت الأرجل، وودعته العجوز بنظرة جامدة .

ذهبت الشمس، تركت لهم لزوجة تجعل ملابسهم ملتصقة بأجسادهم والطفل جائع كلمته الوحيدة :

- مم . . إ!

والعجوز وسط الظلام تهتز بعنف وترقب :

- ارحمنا أيها الرب ..

وانطلقت خيوط حمراء تومض وسط الظلمة تجاههم ، وارتخت يدا الطفل فجأة من حول رقبته، ارتمى الجسد البض إلى الخلف فى حركة مباغتة جعلته يسقط، رغم محاولته اليائسة فى أن يحول بينه وبين السقوط من بين يديه، لكنه سقط .. سقط هو أيضا معه وسط الأنات والدماء اللزجة التى غطت صدره، وتذكر كيف هل على أمه فكاد يقع، وهو يقسم لها انه سيحول كل شعره صفراء فى رأسها إلى خضرة، وهى تبتسم له فيقوى عوده، ويتململ محاولا أن يقف، فتقبل عربات سوداء كئيبة لتحمله مع الجرحى، ولكنهم لم يذهبوا بهم إلى المستشفى، رموا بهم وسط الصحراء، ثم ابتعد الجند عنهم كثيرا، وفتحوا نيران مدافعهم . انتفض واقفا، جرى .. وجرى . ، واكتشف وهو يجرى انه ليس جريحا، لقد فداه جسد الطفل، وأصبحت طلقاتهم اعجز من أن تنال منه :

- آه يا أمى .

ارتمى فوق صدرها يلهث وهى تحضنه بقوة، لحظت عيناه أن شعيرات صفراء جديدة قد نبتت بين الخضرة فاقسم من أعماقه أن يغير لونها .

الرجل الرابع :
تنهد بارتياح وهو يفرد جسمه فى المقعد الصغير، وكأنما يريد أن يشعر بكل ذرة من كيانه تلتصق بذرات المقعد، ومد يديه يربط الحزام حول جسده وتنهد :

- أخيرا عدت إلى طائرتك ، وانطلقت الأوامر تقول " طابور من مدفعية العدو يتقدم لتعزيز قواته المعتدية . علينا أن نبيده " .

كان يشعر بأن الكلام موجه له بالذات، لذا حلقت طائرته فى ثوان، ومرقت كالسهم تسبق كل الطائرات، تحته بدت الخضرة، والبيوت، ثم خط المياه وقد بدأ رفيعا ممطوطا، فالشريط العريض الأصفر، الشعيرات الصفراء وسط الخضرة؛ على صدرها كانت تتحرك جرارات تسحب وراءها مدافع ضخمة .
قالت زوجته :

- آخي قال : لو كانت فوق رؤوسهم طائرة واحدة لدمروا كل مدافعهم وأشباحهم بكى لحظتها، بكى بقوة وهوان من يجد نفسه مغلولا وقال: ولكنى سأقوم بكل ما لم تقوموا به .

.. واندفعت الطائرة تهبط كالصاعقة ، ويده فوق الزر ينطلق المدفع بثقة، فتتحطم كتل الصلب وتشتعل فيها النيران . وارتفعت طائرته ثانية فى شموخ ، ومدفعها لم يزل ينفث الدخان والرجل تتحرك عيناه فى وعى لتحيط بكل شئ حوله ، وحوله كانت طائرات زملائه قد لحقته محلقة حوله ومدافعها متحفزة فى تحية اعتزاز ، ولما شاهدتهم أضاء الأمل وجهها، واستعادتهم إلى صدرها فناولها المدفع الجديد، ومد يده يسمح على شعرها، فمدت يدها بالمدفع إلى الأطفال الخمسة ونفيسة، فتناوله الواحد من الآخر وأغنية الفداء تتردد قوية واثقة.

مجلة الاجتماعى عدد يونيو ١٩٦٧

" حقيقـــــة "

أثناء حرب الاستنزاف بين مصر وإسرائيل
أسقطت طائرة إسرائيلية قنابلها فوق مدرسة
للأطفــــال بقرية " بحر البقر "، وأثناء حرب
٦ أكتوبر أسقطت صواريخ المصرية، طـــائرة
إسرائيلية فى حقول القرية ذاتها "

أمنيـــــة

- ١ -

ظل لسنوات يحلم بأن تكون له طفلة ، ابنة تكون له مثل ما كانت أخواته لأبيه حباً وعطفاً ورعاية حملت امرأته . اكثر من الدعاء والتوسل لله بأن يحقق أمله . وكلما مرت الأيام وصنعت شهوراً زاد قلقة .. إلى أن سمع صوتها يأتى رقيقاً عبر الحجرة التى تلد فيها زوجته . ثم سمع صوت القابلة يؤكد فى تردد : " ربنا يطول عمرك وتعيش حتى تزوجها "
صرخ بكل شوقه :
ــ بنت .. الحمد لك يا رب .. تحققت أمنيتى .

- ٢ -

كانت تكبر بين حدقتى عينيه . مع نموها ينمو حبها له ويطغى حتى صارت لا تأكل أو تشرب شيئاً الا وضعته أمام فمه متسائلة فى رجاء :
-ألا تأخذه أنت يا أبى ؟
جميلة هى ، ولقد أقلقه جمالها الصارخ ، فأستنجد بالأولياء ، وبكتاب الاحجبة ، لكى يحفظها الله من عيون الحساد .
ثم فكر أن يمنعها من الذهاب الى مدرسة القرية ، أن يجعلها لا تغادر البيت ، ولكن كيف يفعل هذا وأمنيته أن تكبر .. وتكبر وتصبح طبيبة ترعاه فى شيخوخته؟ ..
ولقد كان هو الرجل الوحيد فى قرية البقر الذى يصطحب ابنته كل صباح الى المدرسة ، وينتظرها عند الظهيرة ليعود بها إلى الدار ، ولأنه من المعتاد أن تقوم النساء بهذا الدور . .
كثيراً ما يسأله رجال القرية ساخرين :
-لماذا لا تدخل معها الفصل يا عمدة ؟!!!
.. والواقع أنه كثيراً ما سأل نفسه : حقاً لماذا لا أدخل معها ؟!!!

- ٣ -

صرخ الخطر مع انفجار قنابل الطائرات المغيرة فى حقول القرية ، جار صوت رجل :
ــ الطائرة ضربت المدرسة يا رجال ..
توجع قلب امرأة :
ــ عيالى فى المدرسة .

.. انكفأ فى قعدته .. سقط على وجهه .. سال دمه على أيدى الذين أعانوه على الاعتدال .. أن :
– أبنتى .. أمنية .. هناك
دارت به الدنيا ، أغش عليه .

- ٤ -

استفسر فى إصرار عن نوع الطائرة وعن طريق إسقاطها ، وتمنى أن يجلس وراء مدفع ماسورته تشمخ لأعلا باحثة بين نتف الغيوم لتطلق داناتها فلا تخطىء الهدف ، وهدفه دائماً طائرة بذاتها ، وطيار بذاته يحدد ملامحه وكأنه رآه وعرفه بل وتأمله كثيراً حتى حفرت صورته فى ذاكرته بكل وضوح .
.. لما سأل عن الطريقة التى يستطيع أن يملك بها مدفعاً فوجئ باستحالة مطلبه حتى لو باع كل ما يملك ، لذا راح يتخيل نفسه طائراً فى السماء يلاحق ذات الطائرة الضخمة التى مرت فى سماء القرية وأسقطت قنابلها فوق أمنية فتطايرت أشلاء حتى أنه لم يعثر لها على أثر .. يتوجع قلبه :
– سألحق بها .
ويسرع فى طيرانه .. ويسرع ، يلحق بالطائرة ، يقف فوق جسمها العملاق ، ينهال عليه بالمطرقة ، لا .. بيديه يفتتها . وقبل أن تسقط يمد يده إلى كابينة القيادة ويخرجه منها ذو الوجه الكريه ، ينزل به إلى الأرض يخنقه ، يقطعه بسكين صدئة ، بادئاً باليدين ، لا .. بادئاً بالأصابع ، بل بأجزاء من الأصابع .. إلى أن يحوله إلى فتات صغيرة تذروها الرياح فيتابعها بنشوة عارمة وهى تتلاشى عاوياً فى تشف :
– اذهب .. تبدد .. تبدد .
.. وهنا كان يبكى بحرقه وتمتد أيدى زوجته وأبناؤه لتوقظه من كابوسه الرهيب ، لكن الحلم تمدد وتضخم وصار كل حياته فأصبح يراه وهو جالس بين اهل القرية ، وهز الرجال رؤوسهم مشفقين :
– لا اله إلا الله .. عمدة القرية يسعى حثيثاً فى طريق الجنون .

- ٥ -

قرية بحر البقر : تجرى نساءها، رجالها، أطفالها،، دوابها، طيورها .. والصرخات الفرحة المتشفية تتناثر من الأفواه :
- مدفعيتنا أسقطت طائرة العدو .
- طيارها قفز حياً .
- هيا نقتله .
- نقتله .
- نقتله .
انحنت عليه زوجته تهزه فى ترفق وتشرح له الموقف وهو غير مدرك أو مستجيب فلم تجد مناصاً من أن تهزه بشدة صارخة :
- أنهض .. لقد تحققت أمنيتك .. الطيار قاتل ابنتنا أسقطوه ..
توهج عقله الخامل .. دبت الحياة فى أوصاله ، قفز من فراشه فى نزق :
- آه أخيراً وقع فى يدى ابن القتلة .
.. بملابس نومه اندفع خارجاً من داره ، بكل قواه يجرى متخطياً من أمامه ،لكنه وجد آخرين قد سبقوه ، وقع الطيار بين أيديهم يصرخ فى هلع .. أقترب منه : يدا السفاح مخالب النسر .. لا بل يدان عاديتان لكنهما ملطختان بالدماء .. دماء ابنته التى قتلها ، ويقترب أكثر .. بل هى دماؤه هو .. فرأسه

مشجوجة ، والأيدى تنهال فوقه باللكمات فى حقد ، كل واحد منهم له ابن مات ، لكن مصيبتهم ليست فى حجم مصيبته .. مصيبته أمر واقع ، صرخ فيهم :
- دعوه لى .. ابتعدوا عنه .. أنا الذى سأقتله .
أفزعتهم الصرخة .. توقفوا .. نظروا إلى عمدتهم .. هالهم الجنون الذى يبرق من عينيه تراجعوا للخلف .. خطوات ، تقدم وجسده ينتفض من شدة الانفعال .. تحول وجه الطيار الى عينين كبيرتين فزعتين .. التقت العيون : عيونه خضراء فى عين النبات الفضى .. نفس لون عيونها .. عيون أمينة .. أبنته ، حتى لون دمه الذى يسيل كلون دمها .. فتح الطيار فمه وتوسل :
- أمان .. سلام .. لا تقتلنى يا مصرى .. أبى سيموت .. أبى يحبنى
يا حبة القلب .. أباك يحبك .. آه .. أحبك ..
سالت دموعه وهو ينحنى على أمنية وقد فتحت فمها رضيعة تنتظر أن يلقفها حلمة الثدى الصناعى وعيناها تنظران إليه فى توسل ورجاء بأن لا يخذلها :
- يا مسكينة .. يا مسكينة .
ركع بجانبه .. أخذ رأسه إلى صدره .. بهت أهل القرية ثم تصايحوا فى غضب :
- مجنون .. يصمد جراح قاتله .
تدافعت الجموع تحيط به .. امتدت الأيدى محاولة تخليص الطيار من بين يديه ، لكنه حمله ونهض شامخاً ، لا يدرى من أين جاءته كل تلك القوة التى جعلته يحمل الطيار بين يديه وأمنيته .. آخر أمنياته أن يخرج بالأسير من بينهم حياً، حتى لو استوجب الأمر أن يموت هو .
مجلة أكتوبر يناير ١٩٩٥

النـــاس

الأمر لم يعد سرا ، فلقد استدار البطن وانبعج يعلن أن داخل أحشائها ثمرة محرمة ، وهى لا تتكلم أو تحاول إخفاء آمرها بل الابتسامة تملأ وجهها الأسمر فى رواحها وغدوها بين الأزقة . والناس كلما سألوها عمن فعل بها هذا لتجيبهم بغير ضحكة جوفاء فلا يملكون أنفسهم عن سب النذل الذى نهش عرضها ولم يسترها ، ومع الأيام ، ملت عيون الناس منظر البطن المنبعج والشفاه السوداء المنفرشه على الوجه الأبله فاستدارت تحاصر أخاها فى تساؤل وترقب لما سيفعل لدرء عاره ، ولم يكن ليحس بالعار ، لكنه كان يشعر بنظراتهم تجره للإحساس به بالرغم من كونه مقتنعا بأن أخته لا تدرى شيئا مما جنت ولا تستأهل عقابا ، الفاعل هو الذى يستأهله ، ولكن الجميع ينقلون نظرهم بينه وبين أخته كأنما ليست هناك حلقة مفقودة بدونها ما كانت المأساة . حاول أن يتجنب الناس ، فأضحى يقضى طوال يومه وحيدا ولكن نظراتهم انثنت تحرك ألسنتهم في تهكم يلاحقه كلما رأوه : - شوف أختك ، يا فرحتك بما ستأتى لك به .. أتحسبها عبيطة، هه .. انك أنت العبيط ؟ دارت الكلمات فى ذهنه بطيئة خاوية، ثم دارت ودارت وأضحت تحمل معانى سيئة وتحرق دمه : حقا أهي عبيطة ؟ .. لكن العبط لا يقدمون على مثل هذا العمل .. لا يقدمون عليه . . ويعصر رأسه ببين كفيه ، يود لو يوقف هذا التيار ، أو يحطمها : يا رب أنى تائه . . حائر يارب .. ولكن الناس لا يرحمونه . -شوف أختك شوف أختك .. شوف ....

ولم يعد يطيق ، رمى بفأسه فى الطريق واستدار عائدا وكل مافية يغلى . كانت تقف قبالة الدار تنظر إلى نهاية الدرب فى شرود : ترى من تنتظر ال .. والكلمات اندفعت تطن فى آذنيه :

- أتحسبها عبيطة . . أنك أنت العبيط ؟

ارتمى عليها يلكمها ويدفعها إلى داخل الدار وهى لا تقاوم .. مستسلمة : تستغفله :القذرة أخيرا وقف يلهث وقد تقطعت أنفاسه وشعور بالراحة يتمشى فى أوصاله ، عفوا سقطت منه نظراته تحت قدميه . . كانت أخته ممدة على التراب والابتسامة لم تغادر قسماتها تضخم جرمه وتجسمه، صرخ متراجعا فى هلع : -أنها عبيطة .. عبيطة . وطوته ثورة عارمة ، فراح يضرب رأسه بالحائط ويئن ثم انهار يقبل أخته حينا وينهشها حينا آخر ، وحولهما تجمع الناس ينظرون ما يجرى وجمرون رؤوسهم ويفحون فى اتعاظ

- يا سلام شوفوا ماذا فعل به تجنيه على البنت المسكينة لقد جن ..

مجلة الأدب عدد يناير ١٩٦٠

حياة مكشوفة

لقد اعتاد راضى الا يكون فى حياته ما هو سر يخفيه ، ولا ما هو خاص به فيغلق أبوابه دون من حوله : فزوجته لا تترك ثنية فى ملابسه إلا وفتشتها ، وهى تفتح رسائله وتقرؤها قبل أن يقرأها هو ، كما أنها تنتظره كل يوم فى مدخل البيت لتستجوبه فى دأب ومثابرة عن كل ما صدر عنه أثناء مكوثه فى الخارج بطريقة تشعره بأنه واقع تحت تأثير كابوس لا سبيل للخلاص منه إلا بتقيوء كل ما بداخله ، أما زملاؤه فى العمل فأنهم يفتشون مكتبه ، ويضعون أيديهم فى جيوبه ويخرجونها بكل ما تتعثر فيه أصابعهم : علبة سجائره ، حافظته أورقه بها أسماء الدائنين ، رسالة غالبا ما تكون من أبنته المغتربة تشكو له على صفحاتها قسوة زوجها ، كما أنهم يتبسطون معه في الحديث ، فيسألونه عن أدق ما فى حياته من أشياء . كان راضى فى البدء يجد غضاضة فى أن يجيب ، ثم اعتاد مع تتابع الأيام أن يحكى بلا تحرج ، حتى أننا نستطيع أن نقول : أن حياته كانت كعلبة من زجاج شفاف . لكن. وبالرغم من هذا . .. أربد وجه راضى فاصفر ، ثم احمر لما سمع رئيسه ينبئه برغبة المفتش القادم من الوزارة فى أن يلقى نظرة على الخزانة ، وراحت تجاعيد وجهه ترتعد فى أنفعال انعكس على صوته رعشات ووهن ، وهو يعلن :

- محال . . . إنني أرفض .
- سأله رئيسه مندهشا :
- كيف ترفض . . أنها أوامر الوزارة ؟

صرخ راضى فى غضب :

- وأين كانت الوزارة طيلة الخمسة عشر عاما الماضية؟ اننى لن أسمح لأحد مهما كان بأن يفتح الخزانة ، السماء أقرب إليهم من فتحها .

قال رئيسه وقد مال على أذنه هامسا :

- إذا كان هناك عجز فى عهدتك تستطيع أن تسوية بدون ضجة وبلا فضائح .، فى مكتبى خمسون جنيها أضعها تحت تصرفك ، ولك أن تسددها وقتما تشاء .
- بان التأثر على راضى ، فخرجت كلماته هادئة متوسلة :
- - لا ياسيدى .. إن الأمر ليس كما تظن انه أعمق من هذا أنها .. الخزانة . . ولكنك لن تفهمنى ياسيدى ،..انه شئ مريع ، أنها فى حوزتى منذ خمسة عشر عاما لم يمس ما بداخلها مخلوق غيرى . . أنا فقط ، لا زوجتى، ولا زملائى، أنها .. إنها .. ولكن هل ستفهمنى ياسيدى ؟ .. لا .. أبدا، محال أن تفهمنى ..
- .. اندفعت الدموع إلى مآقى راضى . فسكت ليخفف من انفعاله ، ثم تشاغل بعد لحظة :
- - أنت .. أنت ياسيدى ، هل شككت فى يوما ؟
- - أبدا . .
- - هل تعتقد أنى لص ، أو أننى من الممكن أن أقدم على فعل شئ مشين ؟
- مستحيل
- إذن فأنا رجل نظيف ؟.
- يا ألهى ، وهل هناك من يشك فى نزاهتك يا سيد راضى ؟
- ومادمت كذلك يا سيدى ، فلم يتطفلون على خزانتى ؟.
- تمتم رئيسه مهونا :
- إنها مجرد إجراءات شكلية ، تنفيذ الأوامر ليس إلا .

.. ثار راضى ، ارتفع صوته حتى تحول صراخا :

- أية أوامر تلك ؟ .. لينفذوها فى أنفسهم ، لكنى لن أسمح بفتح الخزانة ولن أسلم مفتاحها ، ليكسروها ، ليحرقوها لكن الخزانة لن تفتح بمحض إرادتى .

جذبت الضجة المفتش فاقبل على الحجرة تسبقه نظرات متسائلة ما لبثت أن تحولت إلى مزيج من الدهشة والخوف، فما أن تبينه راضى حتى اندفع اليه يجذبه بيديه الواهنتين من ياقة سترته وصوته يرعد :

- إنك لن تجرؤ على فتحها ، أبدا لن تفتحها أنت أو غيرك اننى أرفض هذا التفتيش، أتسمعنى أننى أرضفه، أرفضه .

تخلص المفتش من قبضة راضى بطف ، حاول الرجلان أن يهدئا من ثورته :

- فقط .. لنتفاهم فى هدوء .

لكن راضى لم يقبل مبدأ التفاهم مطلقا ، فهو لن يسلمهم المفتاح ، وعلى المفتش أن يتصرف كيفما شاء ، هدده المفتش :

- سأبلغ الأمر لرجال الشرطة لينفذوه بالقوة .
- لا داعى لهذا ، نحن إدارة محترمة .

رجاه رئيسه :

- لا داعى للفضائح، فسيسلمك المفتاح .

أصر راضى :

- أبدا لن اسلم المفتاح لأحد فأنا أرفض هذا التفتيش .

غضب رئيسه .. صرخ المفتش :

- سأكتب عنك تقريرا يخسفك .. وسأطلب إحالتك للنيابة الإدارية .

.. واندفع إلى الهاتف ، وماهى الا لحظات حتى عوى نفير عربة الشرطة تحت النافذة ، وتدفق ما بجوف العربة من رجال داخل الحجرة يحيطون براضى، وكلمات منهم ، ورفض منه، حتى ارتفعت حرارة النقاش وأخذت طابع العراك، فصرخ الضابط :

- سأكسر الخزانة ، وفى هذه الحالة ستتحمل المسئولية وحدك .

قفز راضى فأسند ظهره إلى باب الخزانة وصاح متحديا :

- أتحداك أن استطعت مسها .

تدخل الحاضرون، التفوا حول الضابط، ارتفع لغطهم كانوا خليطا من البشر : شرطة مخبرون، سعاة، ناس من العوام جذبتهم الضجة، كلهم يتطلعون إلى الخزانة، نظراتهم تخرق جسد راضى وتدفع بالرجفة فى أوصاله، وحينما تقدم الضابط يشق طريقه متجها إلى راضى، شعر راضى بخوف لا حدود له، همس أحد الوقوف فى أذان الضابط :

- حذار . . عليك أن تستعمل ذكاءك فأنت لا تستطيع أن تكسر الخزانة الا بأمر من النيابة .
- تمتم الضابط هازا رأسه فى ملل :
- اعرف هذا ، ولكن سأحاول أن أهوشه، فالخوف يهز كيانه .

.. ثم رسم على وجهه تعبيرا صارما، ومد يده فى وجه راضى وصرخ :

- أبعده بالقوة يا عسكرى .

تطلع راضى إلى العيون التى تراقب فامتلاء هلعا وزاد من التصاقه بالحديد البارد وهمس :

- لا داعى ياسيدى لكسر الخزانة، ولنتفاهم .

فوجئ الضابط ، لم يرد وان تألقت عيناه بالرضا، أردف راضى :

- لنتفاهم ياسيدى فى هدوء .

اهتبل الضابط اللحظة، فتشدد قائلا :

- أسف ، ليس لدى وقت أضيعه فى المحاورة ، سأكسر الخزانة، هذا ما عزمت عليه .
- أفهمني يا سيد .. سأعطيك المفتاح .

فرد الضابط كفه وقال أمرا :

- إذا هاتة .

جالت عينا راضى فى الوجوه، فانغرست فيهما مائه عين، وخرج صوته كالعبرات :

- أتفتحها أمام كل هؤلاء ؟

- طبعا .
- وما الفائدة من وجودهم ؟
- شهود .
- ياسيدى أرجوك. . . لا داعى لكل هذا الامتهان .
- أى امتهان ؟. .
- أخرجهم من الحجرة ، وأنا مستعد لتنفيذ كل ما تأمر به .
- لن يخرج أحد .
- أرجوك يا سيدى . .
- لا رجاء .
- من أجل شيخوختى .

كاد الضابط يمضى فى عناده، لكنه لمح يد راضى وقد عادت تموت منطبقة على مفتاح الخزانة، فزم شفتيه وأمر الجنود أن يطردوا كل من بالحجرة .

- وليبقى المفتش واثنان من رؤساء الأقسام فقط . .

وحينما بدأ الجنود ينفذون الأوامر، زفرراضى بارتياح وابتعد عن الخزانة، واتجه إلى مقعد قريب، وترك جسده يتكوم فوقه، ثم مد يده بالمفتاح إلى الضابط ونظراته المتعبة ترجوه :

- أخرجهم جميعا يا سيدي ،، جميعا .. جميعهم .

استقر المفتاح فى كف الضابط، فتألقت عيناه بانتصار، وصرخ فى جنوده يستحثهم على الإسراع فى تنقيذ الأوامر، وماهى الا لحظات حتى أخليت الحجرة، تقدم الضابط بخطوات واثقة ففتح الخزانة .. ثم استدار متجها إلى راضى وناداه :

- انهض يا سيد راضى لتحضر الجرد .

.. لكن راضى لم يرد .. ظل فى جلسته المتراخية، وتحرك الضابط واقترب منه، وقال فى لهجة يشوبها الغضب :

- انهض يا سيد راضى .. انهض .. هيا .. هيا .

وتناول الضابط يد راضى يساعده على القيام، لكن لم يبد على ملامحه الصفراء ما يبين انه سيستجيب للدعوة .. فصرخ به الضابط ثائرا وهو يشعر بأنه قد أهين :

- قلت لك قم يا سيد راضى .. قم .

. . وجذب يد راضى بعنف ليجبره على النهوض فاستجابت اليد، ومال راضى إلى أمام .. أمام .. ثم انكفأ الجسد الهامد من فوق المقعد بقوة منفرشا على الأرض .

مجلة القصة يونية ١٩٦٤